الباب السادس

المؤسستان : الثانية والثالثة

جميع شئون الإباضية فى الجزائر ـ مجتمعاً وأفراداً ـ بعد انقراض الدولة الرستمية ولاسيما فى العصور الوسيطة من أوائل القرن الخامس الهجرى فما بعد إنما كانت تقوم على إحدى مؤسسات ثلاث أو عليها جميعاً . وهذه المؤسسات الثلاث هى : مجلس العزابة ، ومجلس العشيرة ، ومجلس المكاريس (إيمسوردان) .

١ ـ مجلس العزابة :

قد تحدثنا عنه فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب وفى هذا الجزء أيضاً بما يكفى لإعطاء صورة واضحة عنه .

٢ ـ مجلس العشيرة :

لا نستطيع أن نعطى صورة كاملة مفصلة ـ فى هذا الفصل ـ عن هذه المؤسسة . ولكن فى إمكاننا ـ استيفاء للأقسام ـ أن نضع بين يدى القارىء الكريم باختصار شديد بعض الملامح التى تتكوّن منها تلك الصورة ، العشيرة تتكون من مجموعة من الأسر تربط بينها أواصر القرابة وعلاقة الرحم . ولكل عشيرة مجلس غير محدد العدد من زعماء العشيرة وذوى الرأى

والفضل منهم ، وللمجلس رئيس يختارونه من بينهم ، ومن مجموع العشائر تتكون القرية أو المدينة ، ومن رؤساء المجالس يتكون مجلس الضمان ، ورئيس الضمان يمثل الحاكم المدنى للقرية .

ومجلس العشيرة هو المساعد القوى لمجلس العزابة من جهة ، ولمجلس المكاريس من جهة أخرى . وأبرز مهمات مجلس العشيرة تتلخص فيما يلى :

(١) دراسة جميع أحوال العشيرة ودخائلها .

(٢) دراسة جميع المشاكل التى تحدث داخل العشيرة واتخاذ الحلول لها.

(٣) معالجة الانحرافات التى تقع من بعض أفراد العشيرة .

(٤) التعاون مع مجلس العزابة وإبلاغ الحالات المستعصية إليه ليتخذ فيها قراراً من العزابة .

(٥) التعاون مع المكاريس وتشجيع ذوى الكفاءة إلى الانضمام إليه .

(٦) جمع ما يفرض على العشيرة من أتاوات أو ضرائب أو غرامات أو التزامات بأساليب تتفق والمستوى الاقتصادى لكل أسرة ثم إيصال ذلك إلى الجهة المختصة .

ولعل أفضل صورة تعطى عن هذه المؤسسة هى الصورة التى تعاون على رسمها العالمان الجليلان الشيخ أبو اليقظان ـ رحمه الله ـ والشيخ توفيق المدنى أمد الله فى عمره .

قال أستاذنا الشيخ أبو اليقظان رحمه الله ما يلى :

« وقد علق الله بنظام العشائر حقوقاً لليتامى والأرامل والسفهاء والمجانين والغيـاب ، وحفظ به نظام الأسر والعائلات بحفظ الأنساب وإلزام النفقات وإيصال حقوق الميراث لأصحابها وخفف به ثقل الدية فى الخطأ على القاتل بتوزيعها على أفراد العشيرة » انتهى .

وقال الأستاذ توفيق المدنى فى كتاب « الجزائر » صفحة ١٢١ ما يلى :

« بما أن العشيرة تتركب من بيوتات ، والبيت يتركب من عائلات ، فهى بمجموعها تعتبر كوحدة عائلية لا انفكاك بين أجزائها . ومن حيث إنها مكلفة شرعاً حسبما هو منصوص فى الفقه الإسلامى بالسهر على مصالح القصر من اليتامى والمجانين والأرامل والغيب منها . وأنها مسئولة عن جُناتها فى غير العمد فهى متماسكة بلحام الدين وبأوشاج الأرحام ، ولهذه الميزة كان لها الأثر الفعال فى كثير من المصالح العمومية من ردع المفسد وإرشـــاد الضال وإيواء العاجز وإصلاح ذات البين ودفع عادية المعتدين ... الخ .

فهى تعقد جلساتها عادة من رؤساء العائلات كلما هم أمر . وعند كل شهر تقريباً . وجلساتها العامة مرتين فى العام فى الغالب ، هذا هو النظام المتبع منذ القديم وقد تطرق الخلل للبعض فأهمل .

وبفضل ما تقدم لا يوجد فى بلاد ميزاب على الإطلاق زاوية ولا حانة ولا دار خناء ـ إلا ما أوجده الفرنسيون خارج غارداية ـ كما لا يرى على الإطلاق متسول من الميزابيين فى أى طريق من طرق ميزاب .

ولماذا يوجد وعشائرهم كجمعيات خيرية تكفل فقيرهم وعاجزهم بإلزام وليه بنفقته وإلا حوكم أمام القضاء أو مجلس العزابة » انتهى .

ونحب ـ قبل أن نختم هذه الفقرة ـ أن ننقل للقارىء الكريم مقتطفات من كتاب (نهضة الجزائر الحديثة) لمؤلفه الأخ العزيز الأستاذ محمد على دبوز .. قال :

« فهم ـ أى أعضاء مجلس العشيرة ـ العين البصيرة الساهرة ، تراقب

كل أفراد العشيرة ، وتعمل لصالحهم وتقدمهم وهناءهم . إنهم يراقبون سير العشيرة فى ميدان العلم والمال والصلاح » انتهى .

ويقول : « ولكل عشيرة فى ميزاب دار هى ملك لها من إنشائها تعقد فيها مجالس إدارتها وحفلات أعراسها ، وتستعملها المدينة أيضاً فى حفلاتها واجتماعاتها إذا احتجتها .

« ولكل دار أوقاف من أبناء العشيرة أو صندوق من تبرعاتهم لإصلاح الدار وتجهيزها بالأثاث الذى يحتاجه أبناء العشيرة » .

« ترى أن الفقير يجد لعرسه أو ضيفه فى دار عشيرته ما يحتاجه فيستعيره » .

« وينظر المجلس فى مشاكل العشيرة ، فيفض الخصومات بين أهلها ولا يترك خصومة تصل القضاء ، ويراقب سلوك أبناء العشيرة فإذا شذ أحد عن الدين وزاغ عن الصراط المستقيم يستدعيه المجلس إلى دار العشيرة فيعظه ويوبخه ويحاول إصلاحه باللين فإن أصر اجتمع أبناء العشيرة وقرروا تعزيره بالجلد . فإن تمادى رفع أمره إلى العزابة » .

نقلت هذه الفقرة بقليل من التصرف .

وقال : « والعشيرة هى التى تهتم بالأيامى واليتامى فى العشيرة ، فإذا مات أحد وترك أبناء صغاراً دون وصى ، عينت لهم العشيرة وصياً وراقبته وحاسبته فى مال اليتامى وتربيتهم وتعليمهم ، وإذا لم يكن للأيم أقرباء ينفقون عليها فإن مجلس العشيرة يتولى كفالتها وصيانتها » .

« وإذا تعطل أحد عن العمل أوجد له مجلس العشيرة عملا . إن البطالة محرمة فى ميزاب ولذلك ترى التاجر أو الفلاح الذى لا يسع عمله إلا عاملين يستخدم ثلاثة وأكثر . فزالت البطالة من وادى ميزاب بفضل الإسلام » .

« وإذا اختلت تجارة أحد ووقع فى أزمة لجأ إلى مجلس العشيرة فيعينه ويقرضه ويأخذ بيده حتى ينهض » .

هذه مقتطفات من كتاب (نهضة الجزائر الحديثة) نقلت بعضها بالنص وبعضها بتصرف قليل وهى فى جملتها لا تخرج عن إطار الصورة التى وضعها أستاذنا الفاضل الشيخ أبو اليقظان رحمه الله وإن كانت تزيدها لمعاناً وإشراقاً » . .

٣ ـ مجلس أمسطوردان:

كلمة أمسطوردان كما هو واضح ـ كلمة بربرية ، ويختلف الناس فى نطقها اختلافات بسيطة لا تتغير بها بنية الكلمة تغيراً كبيراً وإنما توضع فيها بعض الحروف مكان بعض ، أو قد تحذف بعض الحروف منها وهذه الصيغة هى أكمل الصيغ وهى بلهجة أهل غارادية .

وكما اختلف الناس فى نطقها اختلفوا أيضاً فى معناها وترجمتها إلى اللغة العربية أى فى مدلولها اللغوى . فقد ترجمها بعضهم (بجمعية الشباب) وترجمها بعضهم بجماعة الحراسة ، وسماها بعضهم جمعية المكاريس . والكلمتان الأخيرتان متقاربتان ـ فيما يبدو لى ـ فى مبناها وفى معناها . فكلمة مكاريس على ما يظهر محرفة عن كلمة محاريس جمع محراس وهى تدل على المبالغة فى القيام بالحراسة كقولهم مطعان لكثير الطعن ومطعام لكثير الإطعام وجمعها جميعاً : مطاعين ، مطاعيم ، محاريس . ولها نظائر فى اللغة العربية وإن لم تحفظ بهذه الصيغة . وهذا التعليل وإن كان بعيداً فإنه أقرب ما تعلل به هذه الكلمة .

وأبعد من هذا ماذهب إليه بعض من تناقشت معهم فى أصل هذه الكلمة فقال :

لعلها مأخوذة من كلمة (كرس) ومعناها الجماعة من الناس وجمعها (أكراس) وجمع الجمع (أكاريس) ثم حرفت الهمزة إلى الميم وأطلقت على هذه المؤسسة أو ترجمت بها كلمة (أمسطوردان) لأنها تتكون من جماعات متعـددة وقال بعض من ناقش الـكلمة أن كلمة (مكروس) و (مكاريس) كلمة دارجة فى اللهجة الجزائرية لا أصل لها فى اللغة العربية وهى تعنى الشخص القوى الفطن اللبق . ولما كان أفراد هذه المؤسسة يتمتعون غالباً بهذه الصفات فقد ترجمت به كلمة (أمسطوردان) .

أما كلمة (أمسطوردان) فقد اطلعت على تحليل لها فى بحث لم يذكر صاحبه قدمه إلىّ الأخ العزيز الشيخ نخار حمو بن عمر . وصاحب البحث يرى أن كلمة (أمسطوردان) محرفة عن كلمة (تام أوتسان) وكلمة تام أوتسان تعنى ثمانية أيام وهى المدة التى تدرس فيها طلبات الالتحاق بالمؤسسة ، يقرر فى آخر يوم منها قبول أو رفض الطلب ، فسميت بها المؤسسة ، ومهما كان الأمر فنحن نعود إلى القاعدة العامة المعروفة إذا فهم المعنى فلا مشاحة فى الألفاظ والأسماء ولا تعلل وإن كانت أسماء لمؤسسات . فيستوى أن نطلق عليه اسم (المـكاريس ، أو جماعة الحراســة ، أو أمسطوردان ، أو أمسوردان) .

يؤسفنى أن أقول إننى لا أعرف بالتدقيق متى أنشئت هذه المؤسسة ولا من أنشأها أول مرة ، أو من وضع خطوطها العريضة ، وإنما عرفت هكذا أحياناً باسمها ، وأحياناً بآثارها لعدة قرون مضت .

وربما لو حاول الباحث أن يستنطق الأحداث لوجد جذورها الأولى قد نبتت بعد انقراض الدولة الرستمية مباشرة أو بفترة قصيرة وربما وجد

من الأحداث ما يدل أنها كانت مصاحبة لنظام العزابة أو كانت هي التمهيد الأول لنشأة فكرة العزابة ، وإنما انفصل نظام العزابة عنها لطبيعة النشاط الذى تزاوله كل منهما ويدل لذلك أن تنظيماً شبيهاً بهذا التنظيم كان يوجد بجبل نفوسة تتضح بعض آثاره منذ لقرن الخامس الهجرى ، بل قبل ذلك كما تفيده مواقف أبى يوسف وجدليش اليجلانى وأضرابه .

ولم يختف هذا التنظيم من بعض قرى الجبل ـ كمؤسسة لها نظم وتقاليد ـ إلا بعد احتلال الطليان للجبل ، وكانت هذه المؤسسة تسمى (إعَمَّارَنْ) أى العمّارة ، وتتكون عادة من أربعين شخصاً لا يقلون إلا عند الضرورة ، أما اختيارهم فيتم عن طريق العشائر أو فروع القبائل . ومجلس العمار فى اجتماعه العام هو الذى يتولى اختيار الرئيس من بينهم . أما عملهم فيجتمع صلاحيات متعددة فهم يتولون حراسة البلد وحراسة الغابة من السرقة ولهم فى ذلك أنظمة وتقاليد متبعة وأساليب تختلف حسب الفصول والمحاصيل .

وهم أيضاً يقومون بما يقوم به رجال الحسبة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراعاة الأسواق والإشراف على العمليات والمعاملات التى تقوم بين الناس .

وإلى هذا يقومون بما يقوم به شرطة الآداب من اعتقال المنحرفين وتأديبهم أو تقديمهم إلى من يقوم بتأديبهم .

ومن أهم أعمالهم رد العدوان المفاجىء فيتصدون له ريثما تتهيأ الأسباب لدفعه والاستراحة منه .

فلما جاء الاستعمار الإيطالى وسيطر على كل شىء بهتت تلك الصورة

الرائعة للعمار وحرفتها السياسة الاستعمارية من مؤسسة عتيدة لها أعراف وتقاليد ونظم . إلى صورة مصغرة باهتة لها الاسم دون الصلاحيات فكانت تكلف مشائخ القبائل أن يختاروا عدداً قليلا من الناس فى حدود موسم واحد لحراسة غلة ذلك الموسم لقاء أجر محدد يجمع من أصحاب الغلة ، ولم تزل هذه المؤسسة العتيدة ـ فى ليبيا ـ تتضاءل حتى انتهت فى أواخر العهد الإنجليزى واستغنى الناس عن تلك المؤسسات جملة وتفصيلا ، ثم ذاب ذلك النظام وتلاشى وحل محله نظام الشرطة فى المدن والقرى وحرس الغابات فى الرياض والمزارع .

لعل القارىء الكريم يرى كثيراً من ملامح هذا النظام فى ملامح مؤسسة (أمسطوردان) أو ربما يرى الخطوط العريضة لكلا التنظيمين واحدة مما يدل أنها انبثقت من منبع واحد . ولكى أضع بين يديه صورة لهذه المؤسسة العتيدة سوف أعتمد على البحث الذى قدمه إلىّ الأخ الكريم الشيخ فخار حمو بن عمر ـ وإن كنت لا أعرف واضع البحث ـ مستعيناً بما كتبه المؤرخان الكبيران : أبو اليقظان والمدنى فى الموضوع ومن كتابات محمد على دبوز ومن أحاديث ومناقشات متناثرة أثناء لقاءات خاصة وعامة .

١ ـ يستمد نظام حراسة (أمسطوردان) من روح النظام العسكرى عند الدول وهو مستقل تمام الاستقلال عن هيئة العزابة من حيث الإدارة والتصرفات ولكنه يرتبط بالعزابة شرفياً . فهو من العزابة بمثابة السلطة العسكرية من السلطة المدنية . وهيئة (أمسطوردان) عبارة عن مؤسسة معترف بها رسمياً من العزابة ومن نظام العشائر . ومخولة تلقائياً باتخاذ الإجراءات الكاملة فى جميع مجالات عملها دون اعتراض من أحد .

٢ ـ يتلخص عملها فيما يلى : السهر التام على الأمن العام ، والإشراف على الأشغال العامة . وتنظيم الأعمال التطوعية وتوزيع الصدقات فى مواعيدها وحماية المجتمع من شرور المنحرفين والمحافظة على قداسة مجلس العزابة وحمايته مما يتهدده من داخل أو خارج .

فهى تقوم بمزيج من أعمال السلطة العسكرية وأعمال شرطة الأمن وشرطة الآداب ، وأعمال رجال الحسبة ، وأعمال شرطة النجدة والمطافىء ، وأعمال المنظمات الكشفية .

٣ ـ نظام المؤسسة :

للمؤسسة نظام مضبوط محفوظ يتلقاه رؤساؤها كابراً عن كابر منذ أقدم العهود ويتلخص فيما يلى :

تنقسم المؤسسة إلى ثلاث طبقات هى :

طبقة الصغار ، وطبقة المتوسطين ، وطبقة الكبار .

وهذه الطبقات لا يراعى فيها عامل السن وإنما يراعى زمن الانضمام إلى المؤسسة وإجادة القيام بأعمالها فالداخل إليها حديثاً يعتبر من الصغار ولو كان متقدماً فى العمر .

ومهمة طبقة الصغار تنحصر فى الانقياد التام والطاعة الكاملة والقيام بكل الواجبات التى تكلف بها عند اللزوم دون تردد . ولها رئيس من أفرادها ومستشارون .

والرئيس هو الحلقة التى تربط الطبقة الصغرى بالطبقة الوسطى وعليه

أن يبلغ رغائب وطلبات طبقته إلى رئيس الطبقة الوسطى ، وعليه أيضاً أن يتلقى التعليمات والتوجيهات من رئيس الطبقة الوسطى لتبليغها إلى طبقته لتنفيذها والعمل بها .

ومهمة طبقة المتوسطين تنحصر فى تنفيذ الخطط التى ترسم لهم من طبقة الكبار ، وعلى طبقة المتوسطين المعول والاعتماد الكلى فى الحراسة وفى جميع الأعمال الشاقة التى تستدعى مزيداً من الجهد والحذر والسرية .

ولهذه الطبقة أيضاً رئيس منهم ومستشارون ومن اختصاصات هذا الرئيس الاتصال المباشر برئيس طبقة الكبار والتلقى عنه أو التبليغ إليه فى جميع ما يتعلق بشئون المؤسسة .

أما طبقة الكبار فتشبه أن تكون مجلس إدارة موسعة للمؤسسة وعليها وضع الخطط . وترتيب الحراسة ، وتنظيم الأعمال ، وتفقد الحراس حال الحراسة ، واستكشاف نقاط الضعف منهم لملافاتها ، والحضور لدى هيئة العزابة للمفاوضات والمراجعات فى القضايا التى تهم الهيئتين معاً .

ورئاسة المجلس العام بطبقاته الثلاث — ولا يجتمع على صورته الكاملة إلا نادراً بسبب أحداث جسام ، وعندما تقتضى اجتماعه ظروف ملحة ، ويكون الاجتماع تحت رئاسة أكمل طبقة الكبار كفاءة وأقدمهم وجوداً فى المنظمة .

٤ ـ شروط القبول فى المؤسسة :

يشترط لقبول عضو جديد فى المؤسسة عدة شروط أهمها ما يلى :

(١) أن يكون العضو قادراً على حفظ الأسرار محافظة كاملة ومهما كانت الظروف .

(٢) أن يكون حسن السيرة والسلوك وأن يشهد بذلك من يتوفر فيه هذا الشرط .

(٣) أن يكون العضو متزوجاً لأن الزواج يحصن الإنسان .

(٤) أن يكون مقداماً شجاعاً لا يهاب الموت فى سبيل الواجب ولكنه فى نفس الوقت لا يترامى على الموت بدون مبرر .

(٥) أن يكون موفور الصحة يتمتع بالقوة والصلابة ليس به أى مرض ظاهر .

(٦) أن يكون ذكياً لبقاً يعرف كيف يتصرف .

٥ ـ كيفية الانضمام إلى المؤسسة :

عندما يريد شخص أن ينضم إلى هذه المؤسسة فعليه أن يقدم طلباً بواسطة أحد أفراد الهيئة . وعلى ذلك الفرد أن يقدم الطلب إلى رئيسه قبل أول جلسة مقبلة . وفى تلك الجلسة يعلن الرئيس اسم الطالب الجديد للأعضاء ويطالبهم بإعطاء الرأى فيه . وبعد مناقشة تطول أو تقصر يكلف الأعضاء بدراسة سلوك الشخص والمساءلة عنه لمدة ثمانية أيام يجتمعون بعدها للبت فى الموضوع ويعبرون عن هذه الفترة بقولهم (أَكْلِينْتْ ٱلسُّوقْ) وترجمتها الحرفية (رموه فى السوق) ويعنون بذلك أنهم وضعوه تحت الدراسة .

فإذا اجتمعوا بعد الأيام الثمانية طرح الموضوع للمناقشة الدقيقة يشترك فيها جميع الأعضاء ، ويحددون صلاحيته للمؤسسة أو عدمها ويقررون بناء على ذلك ـ رفضه أو قبوله . فإذا كان القرار بالرفض كلف مقدم الطلب الأول بإبلاغ القرار إليه. وإذا كان القرار بالقبول كلف ـ أيضاً ـ بإبلاغ القبول إليه ويطلب منه الحضور فى موعد يحدد له. وفى الموعد المحدد ينعقد الاجتماع للمرة الأخيرة . ويبقى العضو الجديد ورفيقه فى معزل عن مكان الاجتماع . وتعاد مناقشة الموضوع مناقشة خفيفة فإذا لم يجد فى الموضوع ما يغير القرار بالقبول فيدعى العضو الجديد ورفيقه للحضور ويعلن له أنه قبل فى المؤسسة ثم يشرح له الرئيس واجبات العضو وأخلاقيات المؤسسة وخطوات العمل فيها والمشاق التى سوف تصادفه كما يشرح له أسباب ترقى العضو من هيئة إلى هيئة ، ثم يطلب منه إعلان موافقته وقبوله لكل ذلك علناً وصراحة . فإذا أعلن ذلك أخذ عليه عهد بكل ذلك . وبعد ذلك يصبح عضواً فى المؤسسة ويعتبر أصغر الأعضاء الموجودين ولو كان أكبر منهم سناً وعليه واجبات أصغر الأعضاء وله حقوقهم وكذلك مجلس العزابة ودار التلاميذ يعتبر أصغر الأعضاء آخرهم دخولا وعليه خدمتهم وعليه أن يطيع من سبقه مهما كان سنه وعليه أن يجلس بعده فى المجالس الرسمية فللأقدمية فى هذه التنظيمات حقوق مراعاة .

٦ ـ مقر المؤسسة :

التنظيم الداخلى لهذه المؤسسة يختلف من قرية إلى قرية ولعل الصورة الكاملة له هى المتبعة فى غارداية .

فى غارداية تعتبر المحاضر (وهى المدارس القرآنية المركزية) مراكز

لهذه المؤسسة وفى هذه المحاضر تعقد الاجتماعات وتصدر جميع التنظيمات الخاصة بالمؤسسة ومنها تنبعث جميع ألوان النشاط الذى تقوم به . ولنعطى صورة عن الحركة التى تقوم بها المؤسسة يمكن لنا أن نوضحها فى الخطوط الآتية :

تجتمع طبقة الكبار فتناقش موضوعاً من مواضيع النشاط الذى تقوم به المؤسسة كالحراسة . أو منشآت تطوعية جماعية . أو توزيع صدقات موسمية ، أو غير ذلك من ألوان نشاطها . فتتخذ فى ذلك قراراً أو تنظيماً معيناً ثم يبلغ للمراكز للتنفيذ ، ولكى نوضح للقارىء الكريم أسلوب العمل فى هذه المؤسسة ينبغى أن نأخذ لوناً من ألوان نشاطها كمثل على بقية الأنشطة ، وقد أخذنا نشاط الحراسة كمثل لبقية الأنشطة نعرضه فى هذا الفصل للإيضاح والبيان .

تجتمع إدارة المؤسسة فتقسم المدينة إلى منطقتين أو أكثر وكذلك تقسم الغابة إلى منطقتين أو عدد من المناطق وتسند كل منطقة أو عدد من المناطق إلى مركز من مراكز المؤسسة ويحدد كذلك عدد الفرق التى تتولى الحراسة ومجال تحرك كل فرقة بدقة ، والفرقة التى تتولى الحراسة ينبغى أن تكون من ثلاثة أفراد أحدهم رئيس لها . وكل مركز من المراكز الفرعية يعين الأفراد الذين يقع اختيارهم للقيام بالحراسة فيدعون إلى اجتماع خاص فى مكان يحدد لهم ، وقد اصطلح أن تسمى هذه المجموعة (فرقة الحراسة) وتسمى كل مجموعة تكلف بلون من ألوان النشاط الأخرى (بفرقة . . .) أى منسوبة إلى لون النشاط فيقال (فرقة ربط السدود) ، أو (فرقة جلب الصخور) أو (فرقة توزيع الصدقات) أو (فرقة إطفاء الحرائق) أو (فرقة إغاثة الملهوفين) أو (فرقة الاحتياط العام أو الخاص) .. إلخ .

أما الأشخاص الثلاثة الذين يكلفون بالحراسة معاً فيطلق عليهم كلمة (رفقة) وكذلك كل مجموعة صغيرة تكلف بجزء من نشاط تسمى (رفقة) ومعنى هذا أن الفرقة تتكون من عدد من الرفقات وعدد الرفقات المحتاج إليها يختلف تبعاً لفصول السنه ولظروف الحياة ولعدد أنواع النشاط المحتاج إليه فى وقت واحد ولعدد الأعضاء الكامل للمؤسسة ورئيس كل رفقة مسئول عن رفقته أمام رئيس الفرقة ورئيس الفرقة مسئول أمام رئيس المركز الفرعى ، ورئيس المركز الفرعى مسئول أمام رئيس المؤسسة الأعلى .

يجتمع العدد المكلف بحراسة المدينة (فرقة الحراسة) كل ليلة بعد صلاة العصر وقبل غروب الشمس ، أما الفرقة المكلفة بحراسة الغابة فتجتمع كل ليلة بعد صلاة العشاء كل فرقة فى مكان خاص يحدد لها . فيلقى عليها رئيس الفرقة التعليمات اللازمة ويحدد لها المناطق التى تلزمها حراستها فى تلك الليلة ويوزع الرفقات عليها ويزود الجميع بكلمة السر التى يتعرف بها بعضهم على بعض إذا دعت الضرورة. فينطلقون إلى القيام بمهماتهم وعند الصباح الباكر يعودون إلى الاجتماع فى مكان يعينه لهم رئيس الرفقة من أول الليل فيتبادلون الأخبار والأحداث والملاحظات عن وقائع ليلتهم فيستمع إليها رئيس فرقتهم ليتخذ الإجراءات المناسبة فى الليلة القادمة .

فإذا حدث حادث فى الليل كوقوع سرقة أو عدوان على مال أو عرض أو ما شابه ذلك فعلى الرفقة التى وقع الحادث فى منطقتها أن تعتقل الجانى فيمسكه اثنان ويذهب الثالث لإبلاغ رئيس الفرقة بالحادث . أما إذا كان الحادث يستدعى مجموعة أكبر من الحراس فإن اثنين يشتغلان بالحادث

ويذهب الثالث إلى الاستنجاد بالرفقات المتجاورة مستعملا كلمة السر التى لا يعرفها غيرهم وعندما يتم القبض على الجانى أو الجناة إذا كانوا عصابة مثلا يتم تسليمه أو تسليمهم إلى المؤسسة حيث تتخذ الإجراء اللازم حالا ، والمهم أن الأمن يسود كامل المنطقة وينام الناس فى دعة وسلام تحت عيونهم الساهرة .

وأعضاء الرفقات حين ينطلقون إلى أعمالهم فى الحراسة لابد أن يخرجوا متنكرين فى لباسهم ، مقنعين وجوههم بحيث لا تعرف أشخاصهم ولا يميزهم لبعضهم إلا كلمة السر التى يحفظونها هم فقط ولا يعرفها غيرهم أبداً .

المحاكمات :

عندما تعتقل رفقة من الرفقات مجرماً متلبساً أو عدداً من المجرمين متلبسين أو فى محاولة فإنها تقدمهم إلى المجلس عن طريق رئيسها وفى أسرع وقت ينعقد المجلس للنظر فى القضية ولا ينفض حتى يتخذ القرار بالحكم وينفذ الحكم دون تردد ، ودون الرجوع إلى أى جهة أخرى .

مجلس التأديب :

إذا اتهم أى عضو فى المؤسسة بأنه قام بعمل مخل بالشرف شرف الفرد نفسه أو شرف المؤسسة . فإن فرقته تعقد له فى مقرها مجلس تحقيق دقيق ، وتجرى معه بحثاً نزيهاً مجرداً من العواطف والاعتبارات وعلى نتيجة ذلك التحقيق يتوقف الحكم فقد يحكم عليه بالبراءة إذا ثبتت براءته فى التحقيق وقد يحكم عليه بالعقوبة . والحكم بالعقوبة يختلف باختلاف الجرائم فقد تكون العقوبة لوماً وتأديباً ، وقد تكون توبيخاً وتقريعاً

وقد تكون بالضرب غير المبرح ، وقد تكون بالإيقاف المؤقت ، وقد تكون بالفصل من المؤسسة .

والمحاكمة والحكم يجرى على جميع أفراد المؤسسة بما فيهم الرئيس وهم فى تحقيقهم ومحاكمتهم وحكمهم وتنفيذهم له مستقلون كامل الاستقلال لا يرجعون إلى أية جهة حتى مجلس العزابة .

إقرار النظام :

مجلس العزابة يمثل أعلى سلطة عند إباضية المغرب وهو الذى يرعى شئون المجتمع ويقوده إلى الخير فإذا وقع الخلل فى هذا المجلس نفسه وتطرق إليه الفساد وانقسم أعضاء المجلس إلى حزبين متطاحنين أو أحزاب وتدهور الوضع إلى حالة يخشى منها على مصلحة الأمة . فمن يستطيع أن يصلح هذا الفساد بالقوة إذا لم تجد أساليب المنطق والعقل والحكمة ؟ .

فى هذه الحالة يتحرك مجلس (أمسطوردان) مجلس الحراسة على كل شىء فيحاول إصلاح الوضع بالحسنى ويتصل اتصالا مباشراً بأعضاء مجلس العزابة ويحاول إقناع المخطىء والمنحرف وإرجاعهم إلى السبيل ، فإذا تعذر ذلك فإنهم يعقدون مجلسهم فى مركز من مراكزهم ويبحثون موضوع قلب المجلس ، فإذا اتفق على اتخاذ هذا القرار سبعون منهم فإن قرار قلب النظام يكون نافذاً .

وأول خطوة يقومون بها بعد اتخاذ القرار بموافقة سبعين منهم على الأقل هو تعيين أعضاء جدد لمجلس العزابة يعين كل فرد منهم للقيام بعمل عضو من الأعضاء القدامى وفى الليلة التى يريدون فيها تنفيذ العملية يطوقون

المسجد بحراسة مشددة ثم يحضرون العزابة الجدد فيسلمون لكل واحد منهم عمله وذلك كله قبل الفجر ويمنعون العزابة القدامى من الدخول إلى المسجد لمدة ثلاثة أيام ، فإذا استقر الأمر وهدأت الأحوال وخضع الأولون للحركة فإنهم يتركون المسجد ويعودون إلى مزاولة نشاطهم أعنى أنه بعد أن يتم تنصيب المجلس الجديد ويباشر كل عضو مهامه تنسحب المؤسسة بعد أن أدت أعظم وأشق وأخطر مسئولياتها لتواصل نشاطاتها العادية فى ميادينها المختلفة .

أحسب أن هذا يكفى لإعطاء صورة عن المؤسسة الثالثة عند إباضية الجزائر ، ربما اختلفت بعض النظم من قرية إلى قرية ، أما هذه الصورة فقد أخذت لمنظمة (أمسطوردان) فى غارداية وقد قيل لى إنها فى هذه المدينة أكمل منها فى بقية المدن والقرى جميعاً وربما اختلفت غارداية عن بقية القرى حتى فى التسمية فبينما تنطق فى غارداية (أمسطوردان) تنطق فى مدن أخرى (أمسوردان) أو (أمصوردان) مما جعلنى فى بعض التعاليق ألاحظ قرب هذه الكلمة من كلمة (أمسيردان) أى المطهرون أو المنظفون أو الغسالون ـ وكنت حين كتبت ذلك التعليق لم أعرف عنها ما عرفته الآن فى رحلتى الأخيرة ـ ولاشك أن هذه المؤسسة تنظف الجميع من كل الشرور .

وأستبعد كل الاستبعاد أن تكون مشتقة من غسل الموتى وإن كان العزابة قد يوكلون إليهم أحياناً غسل بعض الموتى لأن غسل الموتى ليس من نشاطهم العادى ، وقد يقومون به لأسباب وظروف خاصة .

الإباضية والجهاد فى سبيل الله

لاشك أن الجهاد المسلح ـ فى سبيل الله ـ واجب من أوكد الواجبات على المسلمين ـ أمة ودولا ، وأفراداً ـ وأن عملية الجهاد هى النبض الحقيقى الذى يدل على الحياة ، ويبرهن على الوجود ، ويثبت الاستمرار فى أداء الرسالة ، وأن توقف الجهاد من أمة ذات رسالة يعنى توقف الحيـــاة فيها ، وانتكاسها ، وارتدادها عن مكانة القيادة ومطالع الريادة إلى وهدة الجمود والتقوقع ، والتخلى عن تحمل الأمانة التى أوكلت إليها ، أو تعهدت بأدائها .

وذلك أن الأمة ذات الرسالة لا تخلو عن أحد موقفين :

الأول : موقف تحمل فيه رسالتها ، وتنشر حضارتها ، وتمضى مندفعة لتبلغها فى جميع آفاق الأرض ، مسلولة السيوف ، مشرعة الرماح لتأمين الدعوة ، وحفظ صوت البلاغ ، وفتح الطرق أمام كلمة الحق حتى تبلغ كل أذن ، ويعيها كل قلب وتتضح لكل عقل .

فإن هى أغمدت سيوفها ارتدت إليها سيوف أعداء الدعوة ، وتناوشتها رماح المقاومة المضادة .

الثانى : موقف تكون فيه فى موقع الهجوم ، ولكنها تقف ثابتة فى مكانها مستعدة لكل الطوارىء ، متحفزة لرد أى عدوان مضاد . حتى تستكمل أداتها إن كانت محتاجة لأداة ، أو راحتها إن وقفت للاستجمام ، أو موعدها إن توقفت لعهد أو هدنة .

وقد حمل المسلمون رسالتهم وحضارتهم إلى آفاق العالم فى صدق وثبات

ينشرونها ـ وسيوفهم مسلولة ، ورماحهم مشرعة ـ فلما توقفوا عن الجهاد ، وأغمدوا سيوفهم ، ارتدت إليهم سهام أعدائهم ووجهت إليهم طعنات سيوفهم ، وانقلبت المعركة ، فبعد أن كان المسلمون ـ وهم فى حماية الدعوة ـ مهاجمين ، أصبحوا وهم فى حماية أنفسهم وكراسيهم ـ مدافعين ثم أصبحوا على تلك الكراسى متنازعين .

وبنظرة بسيطة إلى التاريخ الإسلامى منذ ابتداء الفتوح وامتدادها إلى جميع الجهات حتى تغلب الاستعمار وشمول احتلالاته ، يتضح لك أن المسلمين كانوا فى انتصار متواصل وتقدم مستمر حين كانوا يحملون دعوتهم منطلقين بها وأسلحتهم موجهة إلى صدور عدوهم ـ فنشروا الإسلام فى جميع أنحاء العالم ، وبلغوا الحضارة إلى كل أطراف المعمورة . ونعم بالحرية والعدالة كل من عمهم ظل حكمهم ، وكانت الدنيا تفسح لهم ، وتنفسح أمامهم وتتفتح تحت ضربات أقدامهم باستمرار ، فلما توقفوا عن الجهاد ووضعوا سيوفهم فى أغمادها وعادوا بنظرهم إلى الداخل . وفكروا تفكيراً مادياً صرفاً ، فأرادوا تقسيم ما بأيديهم ، تولد فيهم النزاع على الكرسى ، وتهارشوا على سلطة الحكم فأصبح السلاح الذى كان يوجه إلى الفتوح يقوم بتجزئة الصفوف ، والجيش الذى كان يضرب العدو ، منقسماً على نفسه يضرب بعضه بعضاً . فتوقف تقدمهم الحضارى ، ونشرهم للإسلام ، ثم اشتبكت أسلحتهم فيما بينهم ولم يزالوا يجزئون وطنهم حتى صار أجزاء صغيرة ضعيفة متحاربة لا يقوى أى منها على رد عدو . ولا يطمئن إلى مساعدة تأتى من الأجزاء الأخرى . فتقدم إليهم العدو يلتهم تلك الدويلات الضعيفة بكراسيها المتداعية قطعة بعد قطعة . ولم ينتصف القرن التاسع عشر الميلادى حتى صار أغلب العالم الإسلامى بدوله الكثيرة الصغيرة محكوماً للاستعمار إما حكماً كاملا ، وإما حكماً قريباً من الكامل .

وفي هذه الأثناء ـ أي منذ توقف الجهاد في سبيل الله انقلب حال المسلمين بدولهم الصغيرة إلى حالتين :

الحالة الأولى :

تتمثل في دفاعهم للعدو المهاجم بما أمكن من القوى، وقد كانت مواقف الناس ، والدول التي تتصدى للقيام بهذا الدفاع تختلف تبعاً للظروف المختلفة ، كالموقع ونظام الحكم ونوع العلاقة مع العدو المهاجم وعلاقة الدولة المدافعة بالدويلات الإسلامية المجاورة ، ثم مقدار ما تشعر به من الأمن في داخلها وهي مشتبكة مع العدو . يضاف كل هذا إلى الاستعداد النفسي والمادي للجهاد في سبيل الله وما يلحق بهذا من المؤثرات .

الحالة الثانية :

تتمثل في انشغال بعض الدويلات بتأمين نفسها ، أو اشتغالها باستغلال ظروف جارتها المنهمكة في اشتباك مع العدو للحصول على مكاسب بشرية أو ترابية تضيفها إلى رقعتها الضيقة . هذا مع العلم بأن علماء المسلمين وصادق المؤمنين لم ينفكوا في أي لحظة عن الصراخ برجال السياسة والحكم لكي ينبذوا مطامحهم ومطامعهم الشخصية ، وأن يتحدوا في نظام واحد يستطيعون فيه أن يوجهوا أسلحتهم ـ بكل جدارة ـ إلى أعداء الله وأعدائهم الحقيقيين، ولكن تلك الصرخات كانت تتحطم على رغبات ومطامح الحكام الأقزام الذين أعمى تشبثهم بالكراسي أبصارهم وصرفهم عن معرفة حقيقتهم في ميزان الحقائق والقيم والقوى .

وموقف الإباضية ـ في عمومه ـ لا يختلف عن موقف بقية الأمة الإسلامية، وبالنسبة إلى إباضية الجزائر يمكن لنا أن نرسم لموقفهم في الجهاد

صورتين توضحان هذا الموقف وتبرزان أهم ملامحه وأبرز سماته .

الصورة الأولى :

عندما كان لإباضية الجزائر دولة قائمة فى تاهرت هى الدولة الرستمية . ونحن حين ننظر إلى خريطة الجزائر الجغرافية للبحث عن موقع الدولة الرستمية التى كان أئمتها على المذهب الإباضى ـ لنرى مبلغ جهادها فى سبيل الله لأعداء الإسلام ـ يتضح لنا أن موقع تلك الدولة كان فى داخل البلاد ، أى أنها ليست مواجهة لأعداء الإسلام فى أى جانب من جوانبها .

أى أنها ليست من دول المواجهة بتعبير اليوم . فبينها وبين أعداء الإسلام ـ من كل جهة ـ بلاد واسعة تقوم عليهـــا دول إسلامية مختلفة الأسماء والنزعات .

وتلك الدول ـ فيما بينها ـ على وفاق حيناً وعلى خلاف وخصام أحياناً كثيرة . وليس للدولة الرستمية منفذ إلى العدو إلا بالمرور على أرض إحدى تلك الدول ، وتلك الدول هى ذات كيان مستقل أو شبه مستقل لا تسمح أبداً ومهما كانت الأسباب والظروف بمرور قوات عسكرية داخل أراضيها . ولذلك فلم يذكر لنا التاريخ ـ فيما أعلم ـ أن الدولة الرستمية قد اشتبكت أو اشتركت فى جهاد فعلى ضد أعداء الإسلام[1] .

يضاف إلى هذا أن الأمة الإسلامية ـ فى عمومها ـ فى تلك الفترة كانت قد بدأت تبتعد عن الجهاد ضد العدو الخارجى وصارت أسلحتها تتجه إلى

---

(١) يرى المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود غير هذا الرأى . ولعله اطلع فى مصادر التاريخ على مالم أطلع عليه من قيام الدولة الرستمية منفردة أو مشتركة بحروب ضد أعداء الإسلام والجهاد فى سبيله .

الداخل يضرب بعضها بعضاً . وأحسنها حالا تلك التى كانت تقف فى صمود ومصابرة لرد العدوان المتكرر من أعداء الله سواء كان أولئك الأعداء تحت راية الشرك أو تحت راية أهل الكتاب من نصارى ويهود .

وعلى كل حال فإنه يبدو لنا أن الدولة الرستمية لم تتح لها فرصة للقيام بواجب الجهاد المقدس استمراراً بالفتح . والله وحده يعلم ما كانت هذه الدولة فاعلة لو أن موقعها كان فى مواجهة العدو الحقيقى ، ولو أن مجال الاستمرار بحمل الرسالة والانطلاق بها كان مفتوحاً لها .

الصورة الثانية :

هى مواقف الإباضية ـ ضد أعداء الإسلام ـ فى هذا المدى التاريخى الطويل الذى مر بالجزائر وليس للإباضيه بها دولة ، وليس لهم فيها سلطان. وإنما هم يكونون مجتمعاً مستقلا أو شبه مستقل يسكن فى بعض الواحات من جنوب الجزائر. يتولى جميع شئونها مجلس منتخب يسمى (مجلس العزابة) أو هم يعيشون أسراً قليلة متناثرة أو فرادى من جهات مختلفة من أنحاء الجزائر .

ولمدى معرفة جهاد الإباضية للعدو الخارجى ـ وكله فى نطاق الدفاع فى هذه الفترة التاريخية الطويلة يمكن أن نتناولها من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : عمل فردى . وذلك أن أعداداً كبيرة من الإباضيه فى الجزائر يعيشون فى مختلف المدن ـ لاسيما مدن الشمال والشواطىء ـ يعملون فى التجارة أو غيرها هنا أو هناك . وهم حين يفتحون متاجرهم هناك فى تلك المدن والقرى يستقرون فيها لمدة طويلة كأنهم من سكانها وعندما يحاول

أى عدو من أعداء الجزائر الاعتداء على إحدى تلك المدن فإنه يجد سكانها ومن ضمنهم الإباضية الذين يشتغلون بالتجارة فيها ـ قد استعدوا للدفاع عنها . وطبيعة الدفاع تقتضى أن يهب الجميع مشتركين متداخلين لصد العدوان فيدخل الإباضية ـ أفراداً ـ ضمن المجموعات الأخرى من بقية السكان وأحياناً تقتضى طريقة الدفاع وأسلوب تنظيم المقاومة أن يقسم المدافعون إلى فرق أو مجموعات تحت أى مبرر ـ ليسند إلى كل فرقة منها مهمة الدفاع إما فى جانب من الجوانب أو جهة معينة ، أو للقيام بعمل محدد ، وقد كان موقف الإباضية فى جميع هذه الأحوال مشرفاً[1] .

فقد صفعوا إسبانيا الاستعمارية فى عهد طاغيتها شارل الخامس صفعة مؤلمة تلقاها قائده لأعمال القرصنة فى برج (بوليلة) سنة ٩٤٨ هـ ـ ١٥٤١م، ومنذ تلك الصفعة لم تقم لإسبانيا الاستعمارية قائمة وبدا نجمها فى الأفول .

وعندما انصبت نيران الاستعمار الفرنسى على الجزائر وقف الإباضية مواقف مشرفة فى كل مكان . وكانت لهم مواقف بطولية يضرب بها المثل كما وقع فى قسنطينة والحراش وغيرها .

قال أستاذنا الفاضل الشيخ أبو اليقظان ـ رحمه الله ـ فى رسالته المخطوطة « الإباضية فى شمال إفريقيا » ما يلى :

« ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى موقف بنى ميزاب ـ وهم مسلمون

---

(١) يذكر المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود أن هناك وقائع كثيرة من الجهاد فى سبيل الله قام بها إباضية الجزائر واشتركوا فيها عبر البحر الأبيض المتوسط . وبما أنه ليست لدى مصادر موثوق بها تثبت بها ذلك الآن وأنني فى هذا الفصل لا أريد إلا أن أقدم للقارىء صورة مصغرة عن هذا الموضوع فقد اكتفيت بما أوردته كخطوط عريضة للموضوع أو طرقات على باب ينبغي للشباب المؤهل أن يفتحه .

طبعاً ـ مـــع فرنسا عندما هجمت على الجزائر سنة ١٨٣٠ فقد تطوع بنو ميزاب بألف جندى من الشبان ـ جهد المقل ـ فى الدفاع عن الجزائر وإن موقفهم البطولى بين جدران قسنطينة ضد الغزو الفرنسى معروف يثير الإعجاب حتى من القواد الفرنسيين أنفسهم » انتهى .

وقد اشتركوا فى جميع الثورات والانتفاضات التى قامت فى الجزائر ضد المحاولات الاستعمارية سواء كانت تلك المحاولات من إسبانيا أو من فرنسا بجهود تختلف قوة وضعفاً حسب ظروف الحال وحسب طبيعة الدفاع .

الجانب الثانى :

عمل جماعى تنظيمى وله صور كثيرة ، كموقفهم فى الحراش وفى قسنطينة وكإرسالهم ألف متطوع من وادى ميزاب نفسها بالإضافة إلى من عندهم فى المدن الجزائرية المختلفة ولعل أهم هذه الصور وأوضحها الموقف الفدائى لطرد الإسبان بعد أن ركزوا أقدامهم فى الشاطىء الجزائرى وخلاصة الموقف كما يلى[1] :

---

(١) أخذت هذه الصورة بنصها عن كتاب (أخلاق وعادات الجزائر) لمؤلفه الجنرال دوماس مستشار الدولة ومدير شئون الجزائر بوزارة الحرب نشرة هاشيت سنة ١٨٥٣ .

وقد ترجم لى هذا النص خصيصا الأخ المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود كما عثرت على نفس الحادثة تحمل نفس الصورة مستقاة من مصادر أخرى فيها خلاف طفيف عن هذه الصورة فى بعض التفاصيل الجانبية . وكلتا الصورتين تفيد أن الذين قاموا بهذه العملية الجريئة هم من الإباضية فقط . وأنهم كانوا مصممين على القيام بها مع يقينهم بعدم نجاتهم من الموت . فهى عملية فدائية من أروع عمليات الفداء وقد تمت بنفس البرج ـ حسبما تقوله المصادر الأخرى لا باحتلاله كما يقول دوماس ثم فرار من نجا من جندشارلكان ، وشارلكان نفسه .

« إنها تعود إلى سنة ١٥٤١ م وإلى الحملة الرهيبة التى وجهها شارل الخامس (شارلكان) ضد مدينة الجزائر التى بدأ القراصنة البرابرة لتحصينها لجعلها مصدر الرعب للمسيحية .

وجد الإمبراطور بعد الاستطلاع أن الربوات التى تشرف على مدينة الجزائر من جهة الجنوب هى موقع مناسب لتثبيت قطع المدفعية ، وأعطى الأوامر لكى يشيد ـ برج أو مركز هجوم ـ فى أسرع وقت لأن هذا المركز يشكل نقطة هامة بالنسبة لجيشه . وإن الأحجار والمواد الضرورية وقع اختيارها فى ناحية عن (دريوط) سهل مصطفى باشا (ميدان المناورات) وقف صفان من جنود المشاة تحمل مواد البناء من السهل إلى المرتفعات أحدهما يمد القفف الملآى والآخر يرجعها فارغة . وفى ليلة واحدة شيد برج منيع محاط بالخنادق وسلحه بقطع المدفعية ذات العيار الكبير . وسماه العرب برج (بوليلة) تخليداً للسرعة الهائلة التى بنى بها .

من الصعب جداً الاستيلاء على موقع كهذا على درجة كبيرة من الحصانة والمناعة ، والمدينة بعد أن صعقت لا يمكن أن تصمد أكثر .

فى هذه الظروف الحرجة قرر بنو ميزاب ـ الذين يوجد منهم عدد كبير منذ ذلك الوقت فى الجزائر ـ أن يضحوا بأنفسهم لإنقاذ المدينة فعرضوا خطتهم على الباشا ، فما كان من هذا الأخير إلا أن وافق كما هو متوقع .

والحيلة التى استعملها بنو ميزاب للوصول دون خطر إلى الموقع هى كما يلى :

لبسوا ملابس النساء ، وغطوا وجوههم باللحاف حسب العادة المحلية حتى لا تظهر لحاهم وشواربهم ، وأخفوا تحت حوائكهم مسدسات ملأى بالذخيرة وخناجر مشحذة ـ فخرجوا من المدينة من جهة (الباب الجديد) وتوجهوا نحو الموقع عند ظهورهم توقف الإسبان الموجودون فى الخنادق عن إطلاق النار ظناً منهم أن سكان المدينة قد استسلموا معبرين عن ذلك بهذه القافلة من النساء حسب الطريقة المتبعة عند المسلمين[1] .

وهكذا دخل هؤلاء المهاجمون الماكرون الحصن دون عرقلة ، وما إن دخل آخرهم حتى كشفوا عن دورهم الحقيقى فأفرغوا أسلحتهم فى هؤلاء الأسبان المغرورين ، وسلوا خناجرهم فاحتدمت معركة عنيفة ورهيبة لم تنته إلا بموت آخر مدافعى الحصن . ورغم المفاجأة لم يكن الدفاع أقل عنفاً وضراوة مما تسبب فى هلاك كثير من بنى ميزاب . وما إن سيطر هؤلاء على الحصن وبعد الإشارة المتفق عليها من قبل ، أسرعت قافلة من جند المشاة كانت قد أُعدت من قبل وراء الباب الجديد فأخذت مواقعها داخل برج (أبو ليلة)» انتهى .

هذا موقف من مواقف الجهاد فى سبيل الله كما صوره مستشار دولة

---

(١) ليس من عادة المسلمين إذا اضطروا إلى التسليم فى معركة ما أن يعبروا عن ذلك بإرسال وفود النساء إلى عدوهم وليست هذه الطريقة طريقتهم وإنما هم قد يرفعون أعلاما بيضاء دلالة على وقف القتال ثم يفاوضون عدوهم ـ ولو كان منتصراً فى معركة ـ بجباه مرفوعة لا مكان للذلة فيها . أما المرأة عندهم فتبقى مكرمة مصونة لا تعرض لمثل هذا الموقف أبدا ما بقى من المسلمين رجل يستطيع أن يرفع السلاح .

ولعل غيرهم ممن اعتاد أن يتاجر بالمرأة فى جميع الميادين، ويبذل بسخاء مقابل أى مكسب هو الذى يفعل هذا . والتاريخ العام يذكر عدداً من النساء اللواتى تاجر بهن أقوامهن واتخذوا منهن بضاعة رخيصة فكسبوا على أعراضهن وجمالهن مكاسب مادية أو سياسية . ولكن ليس بينهن ـ والحمد لله ـ نساء المسلمين .

معادية يتولى إدارة شئون الحرب فى الجزائر يفيض قلبه مرارة من فشل الإسبان ، وحقداً على المسلمين . ولا شك لو أنا أخذنا الصورة عن مؤرخ نزيه لكانت أجمل وأروع من هذا بكثير .

وقد نتج عن هذه العملية الفدائية التى قام بها بعض الإباضية المقيمين فى عاصمة الجزائر — كتجار — إعجاب وتقدير فى نفس الباشا التركى وأراد أن يكافئهم على ذلك المجهود العظيم والتضحية الغالية فرغب إليهم أن يقدموا إليه ما يشاءون من مطالب فطلبوا منه ما يلى :

١ — أن تبقى الاتفاقية السابقة بينهم وبين الدولة التركية سارية المفعول مع الاهتمام بتأمين طرقهم .

٢ — أن يعطى لهم امتياز الإشراف على مذبحة الجزائر حتى يضمنوا صحة الزكاة وحماية اللحوم .

٣ — أن يؤخذ برأى أمين جماعة الحرفة ، وتنفذ له الجهات الرسمية طلباته فيما يتعلق بإرجاع بعض الأفراد من الإباضية إلى واحاتهم إذا خيف عليهم الانحراف .

٤ — أن تعطى لهم أولوية فتح الحمامات وإدارتها .

فوافق الباشا على جميع مطالبهم وهى مطالب كما يرى القارىء الكريم بسيطة ، وربما سخر منها من لا يعرف أو لا يقدر النظرة العميقة التى بنيت عليها .

الجانب الثالث : ويتناول الكفاح المزدوج فى الناحيتين السياسية والعسكرية لمدى طويل ونستطيع أن نوضح معالمه — بإيجاز — فى كفاح

بنى مصعب للاستعمار الفرنسى منذ احتلال فرنسا للجزائر إلى أن طردت منها وذلك على نطاقين : نطاق خاص ، ونطاق عام .

* فى النطاق الخاص : ونعنى به كفاحهم فى سبيل حرية واستقلال وطنهم (وادى ميزاب) خاصة .

ولكى نبنى هذه النقطة على أساس سليم من التاريخ ينبغى أن يعرف القارىء الكريم أن الميزابيين قد اتفقوا مع الدولة التركية فى مبدأ أمرها أن يعترفوا بسيادتها ، وأن يدفعوا لها ضريبة معينة قدرت بما يساوى (٤٥٫٠٠٠) فرنك فرنسى وأن لا يساعدوا أو يأووا أى قائم عليها أو مناهض لحكمها ، ولهم مقابل ذلك أن يتعاطوا تجارتهم فى أى بلد خاضع لسيادتها ـ بكامل الحرية وأن تؤمن طرقهم ومواصلاتهم[1] ، وقد وفوا لها بما اشترطت عليهم ، ووفت لهم ببعض ما اشترطوا عليها وقد بقى الوضع على هذه الحال إلى أن خرجت الدولة التركية من الجزائر واستولت الدولة الفرنسية عليها سنة ١٨٣٠ فاتخذ جهاد الإباضية منعطفاً ثانياً .

لقد وقف بنو مصعب لحماية مدنهم موقف الشعب الحر الشريف ، ولم يتمكن الفرنسيون أبداً من احتلالها واتخاذها مستعمرة ، وعندما سقطت مدن الجزائر كلها شرقيها وغربيها وجنوبيها ولم يبق إلا مدنهم اضطر الإباضية إلى نوع من التساهل كما اضطرت فرنسا أن تتنازل عن كبريائها الاستعمارى ، وأن تقتصر على مد نفوذها الاسمى على تلك المدن ، وقبل بنو مصعب ـ

---

(١) الوثائق الآن ليست تحت يدى ولذلك فقد تركت التحديد ، وأحسب أن هذه الاتفاقية إنما عقدها وفد من بنى مصعب مع خير الدين فى أواخر الربع الأول من القرن العاشر الهجرى . ربما قبل أو أثناء الحركة التى قام بها أحمد بن القاضى وقاره حسن فاضطر خير الدين أن يخمدها بنفسه .

بعد كفاح مرير (سياسياً وعسكرياً) استمر اثنتين وعشرين سنة وزيادة ـ أن يعقدوا معها معاهدة حماية شبيهة بالاتفاقية التى كانت لهم مع تركيا .

من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٣ بقيت هذه المنطقة حرة مستقلة لا تخضع لأحد . وفى سنة ١٨٥٣ عقدت معاهدة الحماية بين فرنسا وبنى مصعب على أن يعترف بنو مصعب بسيادة الدولة الفرنسية وأن يدفعوا لها نفس الضريبة التى كانوا يدفعونها للدولة التركية ، وأن لا يساندوا أو يأووا إليهم من يثور عليها . ولهم عليها أن لاتدخل بلادهم ، وأن لا تتدخل فى شئونهم ، وحتى الضريبة للتفق عليها يقومون هم أنفسهم بجمعها ثم يحملها وفد منهم إلى مدينة الأغواط التى لفرنسا فيها مركز لأن مدن الإباضية إلى ذلك الحين ليس فيها أى مركز حكومى ، ولا أى حاكم فرنسى والتى تنص المعاهدة أن تبقى كذلك أيضاً .

على أن الاستعمار كالمرض الخبيث قد يستكن ولكنه لايشفى ، ويتحرك حين تواتيه الظروف الملائمة . ففى سنة ١٨٨٢ أعلنت فرنسا أنها ألحقت بلاد بنى ميزاب بأملاك فرنسا . وبصورة شبه مفاجئة ، ودون أن يعرف الميزابيون أنفسهم شيئاً عن الموضوع تحركت حامية عسكرية من الأغواط وانقضت فى غارداية دون أى مقدمات ، فلم يتعرض لها السكان بالقوة ظناً منهم أن المطالبة باحترام نصوص المعـــاهدة كفيلة بإرجاع الأمور إلى نصابها . لاعتقادهم أن هذه الغامرة ليست من الدولة نفسها وإنما هى حركة من بعض القواد العسكريين فى الجنوب ، وعندما احتج الميزابيون على هذه الحركة لدى الحكومة الفرنسية أجابتهم ـ بأسلوب المراوغات السياسية المعروفة ـ أنها متقيدة بنصوص المعاهدة وأنها حريصة على تنفيذها والمحافظة عليها . ولكن

الاستعمار لا يعرف الصدق ولا الوفاء ولم تخرج الحامية الفرنسية من غارداية إلى أن خرجت فرنسا من الجزائر . وقد جابه بنو مصعب هذا التصرف من الدولة الفرنسية من جهة بسلسلة من الاحتجاجات والمقاومة الدبلوماسية المبنية على احترام القوانين والمعاهدات والأعراف الدولية ـ لاسيما وأن فرنسا حينئذ كانت تدعى أنها حامية القانون وحارسة الحضارة ـ فكانت تود أن لا يذاع عنها فى الأوساط العالمية ما يناقض دعواها ويكشفها على حقيقتها .

ومن جهة أخرى نظموا مقاطعة سلبية[1] ضد كل ما يتصل بالفرنسيين ولا سيما فيما يتعلق بمساعدتها على إدارة الأعمال . وقد أرادت بناء على استيلائها على المنطقة أن توظف كل مجموعة من الإداريين لمساعدتها فعرضت وظيف (قائد) على كل مدينة ولكن أحداً من أهل البلاد لم يتقدم لهذا الوظيف . ووقف المسلمون المجاورون ـ احتراماً لإخوانهم ـ نفس الموقف فلم يتقدم منهم أحد لشغل ذلك الوظيف المغرى مع حرص الحامية على شغله بعنصر وطنى يكون بمثابة فتح ثغرة فى الصفوف وإحداث صدع فيها . فلما لم يتقدم أحد من المسلمين تقدم له يهودى من الأغواط وجاء فاستلم عمله فى مركز غارداية ـ وبدأ عمله بنوع من التوقح والغلظة والكبرياء . وبينما كان يسير ذات يوم بين القرى ـ فى انتفاخ وزهو ـ امتدت إليه يد فاغتالته . وقامت قيامة الدولة الفرنسية وارتكبت من وسائل التعذيب والتنكيل ما ترتكبه الدول الاستعمارية عادة فى مثل هذه المواقف .

---

(١) قال الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى فى رسالته إلى ما لى : « وما كاد الاحتلال العسكرى يتم حتى نظم الميزابيون المقاطعة السلبية ضد كل ما يتصل بالفرنسيين سيما الوظيف الذى يمنحون بموجبه اليد المطلقة فى كل بلدة وهو وظيف القيادة وقد رفض الميزابيون هذه المسئولية مع ما فيها من نفوذ ولم يقبلوه حتى عينوا يهوديا يسمى (فقح بشاغة) حاكما بأمره ولكن الغدائيين أعدموه فى وادى مليكة أى خارج القرى . وعبثا حاول الفرنسيون العثور على قاتله . فطالبوا الميزابيون بدفع ديته » .

كما أن المقاومة السلمية لم تقف عند حد الرجال ، وإنما تقدمت المرأة إلى اتخاذ موقف رائع . فقد ذكر الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى فى رسالته : « إن الجماعات الدينية للنساء نظمن مؤتمراً تحت رئاسة رئيسة الجماعة الدينية النسائية بغارداية وهى المسماة (مامة بنت سليمان) وقررن إصدار أوامر بمقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها » . وكان هذا الموقف المشرف من هذه المرأة المؤمنة من المواقف التى رفعتها إلى مصاف زعيمات النساء المسلمات فى العصر الحديث . فقد اعتبرها صاحب كتاب (ثورات النساء فى الإسلام) واحدة من اثنتى عشرة امرأة اشتهرن بمواقف بطولية فى العالم .

ورغم أن الحكومة الفرنسية أعلنت ـ عندما احتلت حاميتها العسكرية غارداية فاحتج مواطنو المنطقة على هذا التصرف المخالف لنصوص المعاهدة المبرمة بينهم وبينها ـ أنها ستحافظ على نصوص تلك المعاهدة وأنها ستفى بالتزاماتها ، ولكنها لم تفعل ذلك بل أنها فى سنة (١٩١٢) ـ وشبح الحرب العالمية الأولى يطل عليها ، والدمار يهددها ، وكانت تتشبث بكل ما تعتقد أنه يزيد فى قوتها كما يتشبث الغريق بذنب الأفعى ـ فرضت التجنيد الإجبارى على الإباضية باعتبارهم خاضعين لسيادتها ، فقاموا لذلك وقعدوا ، ووقفوا فى الرفض موقفاً مصمماً لا يتزحزحون عنه ، وبعد صراع عنيف اقترح بعض ساسة فرنسا حلا وسطاً وذلك بأن يدفعوا للدولة الفرنسية مبالغ من المال يمكن لها أن تستأجر بها مرتزقة بالعدد الذى فرضته عليهم بدلا عن أبنائهم ، فلم يقبلوا هذا الحل ، وكان مما استندوا إليه فى رفضهم للتجنيد الإجبارى بالإضافة إلى تمسكهم بنصوص المعاهدة وعدم اعترافهم بأن لفرنسا هذا الحق . وأن ذلك الأمر ليس له أى أساس من الشرعية

مهما كان مصدرها ـ ما يلى[1]:

« والآن نبين هنا بإيجاز منافاة الجندية لحالة ميزاب الدينية ونلخصها فيما يلى :

أولا : إن الجندية تجعل الجندى مجرماً إزاء دينه حيث تضطره لقتل أناس لا موجب لقتلهم وقد قال الله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** ﴾[2] .

ثانياً : تلزمه فى صورة التعويض أن يستأجر بماله من يقتل ـ كذلك ـ أحداً بدون موجب شرعى ، والقاتل بنفسه أو بماله سواء .

ثالثاً : تضطره لترك ركن عظيم من أركان دينه وهو الصلاة وليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة .

رابعاً : تجبره على أكل ما لا يحل له دينه أكله وعلى شرب ما لا يحل له شربه .

خامساً : تفسد له أخلاقه التى يوجب عليه دينه أن يتصف بها .

هذا مجمل ما فى الجندية من منافاة للدين الإسلامى ولذلك قال ذلك الرجل الحر : (م . برونيل) : إنه يستحيل تحقيق إجراء الخدمة العسكرية على بنى ميزاب بدون اعتداء على الفرائض الدينية بمقتضى المذهب الإباضى الذى يوجب خمس صلوات فى اليوم والليلة مع وضوءاتها » .

وقد أخذت قضية التجنيد الإجبارى من إباضية الجزائر حجماً ضخماً شغل المحافل السياسية والعسكرية والقانونية والقضائية فترة طويلة من الزمن

---

(١) منقول بالنص من كتاب (بيان حقيقة) لمؤلفه عمر بن عيسى بن إبراهيم طبعة سنة ١٣٥٠ هـ .

(٢) النساء : ٩٣

إذ استمر الصدام فيها إلى سنة ١٩٤٥ حين اعترفت فرنسا بخطئها وألغت قرارها ذلك ـ بعد أن تورطت فى مواقف لم تكن تحب أن تتورط فيها وعراها موقف الميزابيين الذى احتمى بالقانون والعرف الدولى أمام أنظار العالم ديبلوماسياً وأظهرها على حقيقتها دولة استعمارية شرسة بعيدة عن معانى الحضارة والإنسانية .

وليست قضية التجنيد هى القضية الوحيدة التى شغلت الرأى العام الفرنسى والجزائرى من كفاح إباضية الجزائر . بل هناك قضايا كثيرة منها قضية مقبرة قسنطينة التى شغلت الرأى العام عشر سنوات كاملة وكانت من القضايا الهامة التى تضاربت فيها رغبات السياسة والإدارة من جهة وآراء القضاء والقانون من جهة أخرى وبعد معارك طاحنة على الساحات الجزائرية ثم على الساحات الفرنسية فى باريس نفسها استطاعت دور العدالة أن تقف فى مواجهة السياسة والإدارة وأن تكبح جماحها ، وثبت الحق الذى دافع عنه هذا الشعب الإباضى الصغير بصمود واستماتة حتى ظفر به .

إن الإباضية حينما انتهكت فرنسا حرمة المعاهدة وعلموا أنهم لا يستطيعون مجابهتها بالقوة العسكرية لجأوا إلى ميدان السياسة والقانون وكانوا يرفعون قضية فى كل جزئية تنتج عن انتهاك فرنسا لحرمة المعاهدة فأصبحت دور العدالة فى كل من الجزائر وفرنسا مشغولة بالقضايا ضد الحكومة نفسها وكانت بعض الجرائد الحرة وبعض الجرائد المحلية لا سيما جرائد الشيخ أبى اليقظان ـ رحمه الله ـ شيخ الصحافة فى ذلك الوقت تتناول تلك القضايا بتعاليق تشجب فيها مواقف فرنسا وتحذر العدالة ـ وهى القيمة الوحيدة الباقية لفرنسا الاستعمارية ـ من الزيغ والانتكاس والوقوع فى أحضان السياسة أو الخضوع لإجراءات الإدارة .

وقد أيدهم ووقف إلى جانبهم بعض أحرار الفرنسيين من المحامين والقضاة ورجال الصحافة ورجال السياسة . وهكذا لم تستطع فرنسا بما أوتيت من قوة أن ترغم أولئك الناس ـ مع قلة عددهم ـ على الخضوع لها فبقى الإباضية فى تلك البقعة الصغيرة متميزين عن بقية السكان بأنهم تحت حماية وليسوا تحت نفوذ احتلال واستعمار . مما غل الأيدى الاستعمارية وحال دونها ودون التغلغل فيما بينهم. وبقيت مجالس العزابة، ومجالس العشائر، ومجالس الحراسة، تتولى هى بنفسها جميع شئونهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية . ورغم محاولة فرنسا وبطشها لم يزد تأثيرها عليهم عن مبلغ من المال تأخذه منهم بمقتضى الاتفاقية ، وحامية عسكرية صغيرة منقضة فى غارداية ليس لها من حقائق الحكم إلا راية ترفع على مركزها عند الصباح وتنزلها عند المساء .

ولعل مما يوضح هذا الموقف أن نقتطف صوراً مما قاله المؤرخون فقد جاء فى كتاب (موجز التاريخ العام للجزائر) للأستاذ عثمان الكعاك ص ٤٥٥ ما يلى :

« ولا تزال بلادهم إلى الآن متمتعة باستقلالها الداخلى لا تربطها بفرنسا إلا روابط خفيفة » .

وقال الأستاذ أحمد توفيق المدنى فى (كتاب الجزائر) ص ١٨٤ مايلى:

« واستمر الميزابيون يديرون بلادهم باستقلال حسب مذهبهم الإباضى وكان لهم بها نظام جمهورى متقن بديع . وكانوا يخضعون اسماً للدولة التركية وقد تطوعوا عندما استنفرهم حسين باشا للدفاع عن الجزائر بألف رجل . ثم اعترفت لهم فرنسا بذلك الاستقلال الداخلى المطلق بمعاهدة سنة ١٨٥٣

وأخيراً نقضتها برسالة سنة ١٨٨٢ بدعوى أن الميزابيين أووا إليهم الثائرين على فرنسا وأمدوهم بالسلاح » .

وقال فى ص ٢٢٦ ما يلى :

« ولما أعلنت فرنسا تجنيس سائر اليهود فى الجزائر لم يشمل يهود ميزاب ذلك الأمر ، لأن بلادهم ليست تابعة لفرنسا بل هى بلد حماية » .

وقال فى صفحة ٦٥ ما يلى :

« ثم لما أعلنت فرنسا قانون فصل الدين عن الدولة سنة ١٩٠١ ضبطت كافة الأوقاف الإسلامية التى كانت تقوم بحياة المساجد ورجال الدين والقضاء الإسلامى ، وأدخلت كل ذلك ضمن أملاك الدولة ، ووزعت الأرض على الاستعمار فلم تبق بأرض الجزائر من أوقاف عامة إسلامية إلا ببلاد ميزاب وحدها نسأل الله أن يقى تلك الأوقاف عوادى الحدثان » .

أحسب أن هذه المقتطفات كافية لإيضاح الكفاح الطويل الذى قام به الميزابيون ـ لحماية أنفسهم ـ فى ميدان السياسة والقانون ، وأنهم استطاعوا أن يحفظوا عليهم استقلالهم رغم محاولات الاستعمار وحنق الجهات العسكرية .

وهكذا بقيت معاهدة الحماية نافذة المفعول رغم أن السلطة العسكرية ألغتها بقرار . ولكن ذلك القرار بقى حبراً على ورق ، إذا استثنينا تلك الحامية التى انتصبت بالقوة فى غارداية واستطاعت فى الفترة الأخيرة وبعد اغتيال اليهودى (فتّح) وما قامت به من تنكيل وتعذيب للمواطنين أن تجد أشخاصاً ـ ربما كان قصدهم حماية وطنهم من أمثال (فتّح) فتحت

لهم هناك مكاتب وأسندت إليهم وظائف دون أن يكون لهم مع الجمهور شغل . لأن الجمهور بقى يرتفع بمشاكله كلها إلى الجهات التى ألفها منذ قرون واطمأن إلى كفاءتها ونزاهتها ومراعاتها للحق والمصلحة .

وإذا ما استثنينا سنتى ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ من الكفاح الميزابى ضد التجنيد الإجبارى التى أرغم فيها الشباب الميزابى ـ ولهاتين السنتين فقط ـ على الخدمة العسكرية . فقد استطاع الشعب الميزابى من قبل ومن بعد أن يرفض هذا الأمر حتى اضطرت فرنسا أن تتنازل عن كبريائها وتعترف بخطئها وتلغى ذلك القرار فى سنة ١٩٤٥ م .

ولعله مما يفيد القارىء الكريم أن أنقل له مقتطفات مما جاء فى كتاب (بيان حقيقة) الذى يصور جزءاً من الصراع العنيف بين هذا الشعب الصغير القوى وقوى الشر فى فرنسا الاستعمارية واحتماء هذا الشعب بالمبادىء والقانون والأعراف الدولية .

جاء فى هذا الكتاب ما يلى :

« ولكن الاتفاق الواقع فى ٢٩ إبريل سنة ١٨٥٣ بينهم وبين الوالى العام للجزائر الكونت (راندون) جعلهم تحت حماية فرنسا والتزموا لها مقابل ذلك بدفع خراج سنوى قدره (٤٥) ألف فرنك قيمة ما كانوا يؤدونه خراجاً للترك .

وقد كان الميزابيون يتولون جمع ذلك الخراج بأنفسهم ويبلغونه إلى مركز الحكومة بالأغواط بواسطة وفد منهم يشكل لهذا الغرض وهكذا كانت حالة ميزاب من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٨٢ . وفى هذه السنة أتى الجنرال « دولاتور دو فيرنيو » إلى ميزاب بدون مقاومة وبدون هراق

قطرة دم ونصب فى غارداية حامية عسكرية » « وصدر أمر فى ٢١ ديسمبر من سنة ١٨٨٢ وطد العلائق الموجودة بين فرنسا وميزاب بدون أن ينزع منه استقلاله الداخلى ، ولم يخرج ميزاب عن دائرة الحماية المنعصبة فى سنة ١٨٥٣ ».

« وفى سنة ١٩١٩ أجبر ميزاب على الخدمة العسكرية » .

« ومن ذلك التاريخ يحتج الميزابيون بدون فتور على التجنيد ويعتبرونه غير قانونى ».

« ولكن ذلك الاحتلال لا يكون له نفس ذلك التأثير على بنى ميزاب الذين كانوا يدفعون خراجاً فقط للترك كما شاهدناه وكانت بلادهم غير داخلة سياسياً فى عموم الجزائر التى كانت خاضعة للداى حسين . وهذا الأخير لم يكن له الحق الشرعى فى التخلى لفرنسا إلا عن الحقوق التى كانت له فى ميزاب أعنى الحقوق المنجرة من الاتفاق السالف الذكر » .

« إن احتلال الجزائر لم ينشأ عنه جعل بنى ميزاب رعية لفرنسا خلافاً لما تراه الحكومة الفرنسية . . . وليت شعرى كيف يمكن ذلك وكيف يصح قبول هذا الأمر التشريعى بكونه ألحق ميزاب بالجزائر وجعل أهاليه رعايا فرنسيين لمجرد كونه تضمن أن الممالك الفرنسية بأفريقيا الشمالية تجعل تحت رعاية وال عام . وهل أن ميزاب كان إذ ذاك مملكة فرنسية مع أن الفرنسيين لم تكن لهم أدنى علاقة بميزاب » ؟ .

« إننا رأينا أنه لم يكن سوى بلاد تدفع خراجاً وبهذه الصفة لم تكن أرضاً فرنسية البتة » .

« وما زالوا يعيدون القول بأن هذا الاتفاق المؤرخ فى ١٨٥٣ قد جعلهم فى الحالة العدلية نفسها التى كانوا عليها فى زمن احتلال الجزائر » .

« إن فرنسا التزمت لهم بعدم التدخل فى شئونهم الداخلية بل صرحت لهم بمكتوب الكومندان ديبراى فى ٢٢ إبريل ١٨٥٣ بما يأتى : (إنهم يحافظون على عوائدهم القديمة ويحكمون أنفسهم كما يظهر لهم ، وأن الأعوان الفرنسيون لا يذهبون إليهم » .

« لكن هل ميزاب وقع إلحاقه بفرنسا ؟. لقد ارتكب من ظن ذلك غلطاً فاحشاً لأن الأمر المؤرخ فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ وإن كان استعمل كلمة إلحاق إلا أن ذلك الأمر لم يصادق عليه إلا رئيس الجمهورية المعروض عليه من طرف وزير الداخلية والحربية فى شأن ميزاب وهـــذا التقرير يتضمن ما يأتى : إن ميزاب هو عبارة عن قطعة أرض عائشة فى حرية غير محدودة وقد حان الوقت لإدخال الميزابيين تحت القاعدة العامة » .

« وعبارته العبارة التى وقع استعمالها فى الأمر المؤرخ فى ١٨٨٢ تدل دلالة واضحة بلا نزاع أن هذه البلاد لم يقع إلحاقها قط بمقتضى الاتفاق المؤرخ فى ٢٩ إبريل ١٨٥٣ ، وفى الحقيقة لم يقع إلحاق ميزاب أيضاً بمقتضى الأمر المؤرخ فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ » .

على أننا من حسن حظنا قد اطلعنا على تقرير مؤرخ فى ١٤ مايو ١٩٢٣ وجهه والى عموم الجزائر (م . ستيق) إلى مجلس الدولة وكتب فيه ما يأتى :

(إن الإلحاق المزعوم فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ لا علاقة له بالعملية التى يقتضى القانون الدولى العام أن يتكون منها إلحاق ترابى) فإن السيد الوالى

العام للجزائر على تمام الوفاق مع الميزابيين الذين يحققون أن بلادهم لم يقع إلحاقها فى سنة ١٨٥٣ ولا فى سنة ١٨٨٢ وإن العلماء الذين وقع استفتاؤهم عن حالة ميزاب الشرعية وهم السادة هانرى روبير ومرنا روبيلى قد أيدوا بفتواهم أن ميزاب لم يقع إلحاقة قط وذلك أنهم بينوا جميع الصور التى بمقتضى القانون الدولى العام يتكون منها إلحاق ترابى حسبما يأتى :

أولا : فرض إلحاق بمجرد الفعل وهو الاحتلال أو الغزو وهذا الفرض ليس بصحيح إذ لا يسوغ احتلال الأراضى إلا إذا كانت خالية من الولاية أو من السكان أو تسكنها أمم خارجة عن حدود التمدن وهذه الصورة لا تنطبق على ميزاب الذى حافظ على تأسيساته القديمة رغماً عن جعل قوة عسكرية بغارداية .

ثانياً : فرض عملية الإلحاق بين فرنسا وميزاب .

ولنفرض أن الأمر المؤرخ فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ ألحق ميزاب ولكن لنا الحق أن نبحث بتأمل، هل هذا الأمر يترتب عليه عملية الإلحاق، وبعبارة أخرى إن الموجبات اللازمة لأعمال من هذا النوع قد وقع إتمامها . الجواب لاشك بالنفى ، لأن ما يجب إجراؤه لصحة عملية الإلحاق قد وقع بيانه فى الفصل الثامن من القانون الأساسى الدولى المؤرخ فى ١٦ جويليه سنة ١٨٧٦ القاضى : (بأنه لاتقع حالة أو إبدال أو إلحاق أرض إلا بمقتضى قانون) .

كيف وأن الأمر المؤرخ فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ لم يقع عرضه قط على مجلسى الأمة الفرنسية ولا الموافقة عليه منهما وقد بقى هذا الأمر مجرد مشروع وأن إلحاق ميزاب المزعوم لا يوجد بصفة قانونية » .

« القرض الثالث : فى الإلحاق الضمنى بميزاب بمعنى خارج النطاق

الاعتيادى من القانون وهو غير مقبول أيضاً ، وذلك أنه لم يوجد قط بين فرنسا وميزاب علائق متواصلة حتى يثبتوا الاتحاد النهائى بإلحاق تلك البلاد لفرنسا » .

« الفرض الرابع : وهو الإلحاق تحت عنوان الاحتلال والإدارة وهذا وقع فى جزيرة قبرص والبوسنة والهرسك ، وأما ميزاب فولاة الأمور ليسوا فرنسيين فيه وإنما الأمة هى التى تحكم نفسها بنفسها وتقوم بالوظائف التى تخص المحتل أو المدير وأما من جهة الوجهة العدلية فالميزابيون يتقاضون لدى قضاتهم الإباضية وينفذون أحكامهم بدون احتياج للسلطات الفرنسية . وهذه صفة خاصة بهيئة الحماية » .

« فالمركز العسكرى بغارداية لايتعاطى النظر إلا فى النوازل بين الميزابيين والفرنسيين » .

« وأما من جهة الإدارة فإن بلدان ميزاب خاضعة لسلطة عماله ، وهؤلاء هم الذين يشخصون النفوذ التام ، وأن فرنسا تراقب حقيقة هذه الإدارة ولكن هذا النفوذ فى المراقبة هو من قبيل الحماية » .

« وهذا الشكل فى الإدارة يخالف تماماً غيره المعمول به فى الواحات المجاورة لميزاب التى هى بتمامها خاضعة لنفوذ فرنسا » .

« وهذه الفروض كلها تدل وتثبت أن ميزاب لم يقع إلحاقه قط وأن فقه القضاء كان مؤيداً لهاته الفكرة وأن الميزابيين فى نظرها أجانب أحباب » .

« وبذلك يتبين أن الميزابيين ليسوا برعايا فرنسيين وغير ملزمين

والحالة ما ذكر بالخدمة العسكرية وأن جميع التدابير الإدارية التى اتخذت بعد القانون المؤرخ فى ٣ فيفرى ١٩١٢ بشأن التجنيد بميزاب غير قانونية ».

« ولنختم فصلنا هـذا بما طرز به م برونيل كتابه (تجنيد الأهالى) الجزائريين حيث يقول : « إن الأمة المستقلة التى تدفع خراجاً لا تجب عليها الخدمة العسكرية إلا إذا التزمت بمقتضى اتفاق على ذلك مع الدولة الأخرى التى تعاقدت معها ، وهذه ليس هى حالة ميزاب ومن الظلم ادخالهم فى الجندية » .

أخى القارىء الكريم .. لقد نقلت لك المقتطفات السابقة بشىء قليل من التصرف من كتاب (بيان حقيقة) لمؤلفه عمر بن عيسى أحد وكلاء الأمة الميزابية فى قضيتها الوطنيـة ما بين صفحتى ٤٢ ـــ ٥٨ ، أرجو أننى بذلك وضعت بين يديك ملامح لصورة الصراع الذى تسلح فيه إباضية الجزائر بقوة القانون والقضاء والسياسة الدولية أمام دولة استعمارية غاشمة ترى نفسها فى ذلك الحين ثانى دولة فى العالم قوة وأول دولة فيه علماً وحضارة فاستطاعوا أن يحرزوا عليها الفوز وأن يقفوا فى الميدان فى شموخ تمر بهم الزوابع والأعاصير وهم يزدادون ثباتاً ورسوخاً .

٢ ـ فى النطاق العام :

ونعنى به كفاح بنى مصعب السياسى والمسلح فى سبيل الله من أجل حرية واستقلال وطنهم العام (الجزائر) ، ولكى نضع صورة واضحة ومختصرة من ذلك الكفاح أمام القارىء الكريم يمكن لنا أن نقسمه إلى فترتين :

الفترة الأولى : وتمتد من ابتداء استعداد فرنسا لغزو الجزائر وتمام احتلالها إلى اندلاع ثورة التحرير الجزائرية .

الفترة الثانية : وتمتد من اندلاع الثورة الجزائرية إلى تحرر كامل التطر الجزائرى وخروج فرنسا منها نهائياً .

(١) وفى الفترة الأولى : كان الإباضية على المدى الطويل للكفاح فى طرد الاستعمار الفرنسى ظاهرين فى الميدان . وقد كان منهم شخصيات واضحة فى جميع الثورات والمؤسسات والجمعيات والأحزاب التى قاومت الاستعمار .

ولعل مما يفيد القارىء الكريم أن أقتبس فقرات من رسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى توضح مواقفهم فى هذه الفترة قال ما يلى :

« ولقد اعتبروا الجهاد ضد المشركين واجباً دينياً قبل أن يكون واجباً وطنياً » .

وقال :

« أما مشاركتهم[1] مع الأمير عبد القادر حين نظم المقاومة فى المغرب

---

(١) يبدو أنهم اشتركوا معه فى مقاومة فرنسا ولكنهم رفضوا الخضوع لحكمه فغضب بسبب ذلك فكانت هذه الصورة التى نعرضها عليك جملا من أستاذنا باكلى وقد ترجمها عن كتاب (الصحراء الجزائرية) قال ما يلى :

« لما حاصر الأمير عبد القادر (عين ماضى) كتب للأمة الميزابية أن تعترف بحكومته وتدخل تحت علمه لأنه كما قال : « قد أيدنى الله بالنصر واختارنى فالواجب على كل مسلم أن يعترف بى » . ثم ختم رسالته بهذا التهديد : « فإن رفضتم الخضوع لسلطانى فسأعاقبكم معاقبة ألئمة أقطع رأس كل ميزابى يقع بين يدى » . فأجابته الأمة الميزابية بما صورته : « نحن لا نحيد عن طريقة أجدادنا ولا نبغى سواها مسلكا ، نعم تدفع إليك تجارنا ومسافرونا الغرامة فى بلدانك التى يقطعونها أو يمكثون فيها مثل ما كانوا يفعلون مع الأتراك ، أما تسليم مدننا إليك فلا يقع ولن يقع ونقسم لك أننا عندما تزحف بجيوشك ومدافعك نهدم أسوار بلداننا حتى لا يبقى بين صدر شبابنا وجيوشك حاجز ، فإن هددتنا أن تقطع عنا الحبوب التى ترد علينا من النل فقد ناتك أن لدينا من الذخيرة ـ بارودا وتمرا ـ ما يكفينا لمدة عشرين سنة وأننا نزرع فى بلادنا من القمح ما يموننا تقريبا . وإن توعدتنا بقتل كل ميزابى يقع بين يديك فلا يضعفنا =

الجزائرى فأمر معروف ودليلا على ذلك أذكر أن أحد المفاوضين باسم الأمير عبد القادر فى معاهدة تافنة المعروفة كان ميزابياً من بنى يسقن وكذا أمين الخزانة وإن كان سكان وادى ميزاب لم يدخلوا تحت طاعة الأمير لأسباب أخرى لا مجال لذكرها هنا .

أما مشاركتهم فى ثورة المقرانى وابن الحداد فقد كانت لهم فيها مواقف مشهودة ويكفى أن تعلم أن بولنعاش أحمد بن صالح قد استشهد أمام دار المقرانى ، وقد صادرت فرنسا جميع ممتلكاته مع ما صادرت من أملاك الذين قاموا بدور فعال فى هذه الثورات » .

وقال :

« واستمر الميزابيون بعدها فى مد المقاومة التى كانت منتظمة بالصحراء بقيادة السيد محمد بن الأعلى بنواحى متليلى ، كما ساندوا ثورة أولاد سيدى الشيخ لما كان بينهم وبين الميزابيين من علاقات حسن الجوار ، وحين تنبه الفرنسيون إلى تأييد الميزابيين لكل جيوب المقاومة سيما بالسلاح والعتاد والإيواء قرروا احتلال ميزاب فى سنة ١٨٨٢ ولعل الرسالة التى بعث بها الجنرال مرغريت قائد الحملة فى احتلال ميزاب فى نوفمبر سنة ١٨٨٢ إلى رئيسه الأعلى بالجزائر والتى يذكر فيها الأسباب التى دعته إلى الزحف والاحتلال

= ذلك . لأن الذين بارحوا بلادنا لا نعدهم من جيشنا . وإن شئت فاذبحهم ذبحا . فإذا احتجت إلى كمية من الملح لدبغ جلودهم فنحن مستعدون أن نرسل إليك منه قناطير . إن كانت لك قوة فأت بها » .

وقال أستاذنا باكلى حفظه الله « فلما وصل — أى الأمير عبدالقادر — (تاكدمت) مركز حكمه أمر بإلقاء القبض حالا على بنى ميزاب الموجودين فى المدن الآتية : المدية ، المليانة ، تازا ، بوغاز ، معسكر ، تاكدمت . وغيرها ، ثم ضرب عليهم غرامات فادحة أصبح كلهم بها فقراء » انتهى باختصار وقليل من التصرف .

العسكرى لمنطقة من المفروض فيها أن لا تحتل لوجود اتفاقية . خير دليل على ما قام به الميزابيون من تأييد فعال لجميع جبهات المقاومة فى الصحراء ، وقد قال فى الرسالة ما معناه :

(لقد قررت الزحف على غارداية لأن جميع المقاومة التى تعرضنا لهجماتها فى الصحراء تستمد سلاحها من ميزاب . ومن المعلوم لدى جميع سكان الصحراء أن ميزاب يسمى (دار البارود) وذلك لأن الميزابيين يأتون بملح البارود والرصاص من تونس ويصنعونه عندهم . ويمدون به الثوار . ولقد رأيت هؤلاء الناس يمسكوننا باليد اليمنى ، ويمدون الثورة باليد اليسرى ، ثم إن الكثير من معاونينا قد لقوا حتفهم فى ميزاب ولم نعثر على قاتليهم . ولعل أشد عداء لنا هم الطلبة الذين يسمون العزابة وقد كان أول عمل قمت به هو سجن شيخهم طفيش الذى أعلن الجهاد ضدنا وعرفتهم بهذا العمل أنه لا يستطيع أن يصنع معجزة ولا أن يفلت من سلطاننا) . انتهى ما بقى عالقاً بذهنى من هذه الرسالة ، ولعل لها نظائر كما يشير إلى ذلك البيان الذى أصدره جول تيرمان إلى الجماعات الميزابية فى مبررات احتلال الفرنسيين لميزاب رغم وجود اتفاقية » .

وقال :

« أما مشاركة الميزابيين فى جميع الحركات الوطنية والسياسية منها والثقافية والدينية فهو أمر اعترف به الجميع . فقد ساندوا الكفاح السياسى الذى قام به الشيخ أبو اليقظان فى ميدان الصحافة وقام بعث الوعى السياسى ما بين الحربين العالميتين فى كل من البلاد التى تصل إليها الجرائد ، ولم يهادنه الاستعمار لحظة من الزمن وسقطت جرائده الثمانية واحدة تلو الأخرى وكانت آخر جريدة هى جريدة الفرقان ، التى أقفلت قبل الحرب العالمية الثانية بشهرين .

وقام الميزابيون بدور فعال فى تأسيس جمعية العلماء ومناقشة قانونها الأساسى وكان الشيوخ بيوض وأبو اليقظان عضوين بارزين من أعضاء إدارتها ، كما كان الشيخ باكلى عبد الرحمن والشيخ بن يوسف سليمان من جملة المؤسسين . وشارك الميزابيون مشاركة فعالة فى حركة حزب النواب الجزائرى الذى تزعمه الدكتور ابن جلول ، وكذلك حزب الشعب الذى تزعمه مصالى الحاج .

ولعله من المهم أن نذكر أول مجموعة من الجزائريين ألقى عليهم القبض فى سنة ١٩٣٧ من أجل المطالبة بالاستقلال كان فيها غرافة إبراهيم ومفدى زكرياء مع مصالى الحاج والأحول الحسين وخليفة بن عمار .

ومن الجدير بالذكر أن جريدة (الأمة) التى كان يصدرها الشيخ أبو اليقظان هى الجريدة الوحيدة التى احتجت ضد اعتقال هذه المجموعة من المواطنين رغم وجود جرايد عديدة » .

وقال :

« وقد شارك الميزابيون فى حركة بوراس التى كانت محاولة جريئة رغم ظروف الحرب كما شاركوا فى حركة العقيد ابن داوود وكانت هى الأخرى حركة لنيل الاستقلال على يد الحلفاء بعد نزولهم بالجزائر » .

وقال :

« كل هذه الأعمال السياسية مضافة إلى ما قام به إخواننا من نشاط فى ميدان الإصلاح الدينى والاجتماعى قد لا يعد اليوم شيئاً مذكوراً ولكننا إذا جعلناه فى إطاره التاريخى ودرسنا الظروف التى تجتازها هذه الحركات تحت الحكم الفرنسى والنسبة العددية لإباضية الجزائر يتضح لنا

مقدار ما بذله هذا الشعب الصغير من تضحيات وما قام به من نضال فى سبيل الله » .

وقال :

« لم يقتصر جهادهم على أرض الجزائر بل تعدى إلى كثير من المناطق » .

وقال :

« ولقد بذل للإباضيون بعد الحرب العالمية الأولى مجهوداً جباراً فى مناصرة الحركات السياسية فى شمال إفريقيا . وإليكم ما رويناه عن شيوخنا الذين لا يزال بقية منهم على قيد الحياة :

١ ـ تأييدهم للجهاد الليبى ضد الغزو الإيطالى بالمال والتموين وإيواء المهاجرين منهم .

٢ ـ تأييدهم لحرب عبد الكريم بالريف بالعون المادى كما يذكر ذلك الشيخ حسن البغدادى وهو لا يزال حياً وكان كاتباً للأمير عبد الكريم .

٣ ـ مناصرتهم أو احتضانهم لحركة الزعيم الجزائرى الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر وقد كانت أول حركة سياسية فى الجزائر .

٤ ـ تأييدهم لحركة بعث الخلافة الإسلامية بعد سقوطها .

٥ ـ العمل الجدى الجرىء فى تأسيس الحزب الدستورى بتونس ، فقد كانوا أول المناصرين للشيخ عبد العزيز الثعالبى فى تكوين أول وفد إلى باريس لعرض القضية التونسية ، وطبع كتابه (تونس الشهيدة) .

ولعلكم تعلمون أن نفى الشيخ أبى إسحاق إلى مصر كان بسبب الدور الفعال الذى قام به فى ميدان السياسة وكان من أبرز أنصاره الشيخ أبو اليقظان والشيخ صالح بن يحيى والشيخ محمد الثميني والسيد صالح سيوسيو.

ومن أطرف ماتذكره من اعتراف الحكومة التونسية الحالية بجهاد إخوانها أن الرئيس بورقيبة حافظ على زيارة مكتبة الاستقامة بتونس كل ليلة السابع والعشرين من رمضان بعد الخروج من الحفل الرسمى الذى يقام فى جامع الزيتونة .

ولم يقطع هذه العادة إلا بعد وفاة صاحب المكتبة الشيخ محمد الثمينى رحمه الله .

ونحن حين نستعرض كفاح الميزابيين فى كل الميادين التى يقفون فيها ضد الكفر والشرك نستخلص أن جهادهم نابع من إيمان راسخ بأن الوطن الإسلامى كله ميدان جهاد المؤمنين حيثما وجدوا من بلاد الإسلام وهذا ما يدفع فى صدور الذين يرمونهم بالانعزالية والانطواء » .

أحسب أن هذه المقتطفات التى نقلتها عن رسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى كافية فى إيضاح الصورة التى أردت عرضها من كفاح الإباضية فى الجزائر ضد الاستعمار ، وجهادهم فى سبيل الله طيلة الفترة التى تمتد ما بين سنة ١٨٣٠ التى بدأ فيها احتلال فرنسا للجزائر إلى سنة ١٩٥٤ التى اندلعت فيها نيران الثورة الجزائرية المباركة .

(٢) الفترة الثانية :

هى التى ذهب فيها الشعب الجزائرى بجميع عناصره لتحرير بلاده من الاستعمار الفرنسى سنة ١٩٥٤ إلى أن طردت فرنسا الطرد النهائى إلى غير رجعة.

عندما اندلعت نيران الثورة الجزائرية المسلحة كان الإباضية من أشد وأهم العناصر الذين اشتغلوا فى هذا النضال ومن أصدق من أعدوا له وأثبت

من كافحوا بجد وإخلاص وتضحية فى بعث الثورة والاستمرار فيها والسير بها إلى قمـــة النجاح . ولو أتيح لمؤرخ سياسى أن يستلهم الفن والأدب وقام بدراسة للأناشيد التى كان يتغنى بها الأطفال والشباب الإباضى فى مدارسهم ومعاهدهم منذ الأربعينات لتكشفت له الروح النضالية العالية التى أعدت للثورة ورافقتها وتغنت بنجاحها .

ففى أواخر الأربعينات ـ وهم يعدون للثورة ـ كان الشباب الإباضى يتغنى بأمثال قولهم :

إن أُضرِمَتْ نار الوغى قدّم لها الوقـــود
لا تَرْتَجِ أن تبلغا بدونها الأمـــــال

وفى الخمسينات والشباب الجزائرى مشتبك فى النضال الفعلى المسلح مع قوات الاستعمار الفرنسى كان الشباب الإباضى يتغنى بأمثال قولهم :

يا شباب المسلمين قد جنود الفاتحين
وتقـــــدم لاتهين
إنما المجد الحروب ولدى السلم الكروب والمعالى لاتثوب
بسوى الحرب الزبون

وربما كانت الأناشيد التى تغنت بها المدارس والمعاهد الإباضية فى هذه الفترة النضالية تبلغ المئات وكلها تدعو إلى التضحية والفداء والاستمرار فى النضال وهى ولا شك تعطى صورة كاملة عن نفسية هذا الشعب الصغير.

ولا شك أن السطحيين الذين ينظرون إلى الظواهر قد تخدعهم قلة الأسماء فى جبهات القتال غافلا عن النسبة العددية . ومع ذلك فقد لمعت لهم هناك أسماء وذهب لهم شهداء . ورجع من جبهات القتال بعد الانتصار

مناضلون شرفاء ، لم يمتنوا على الجزائر بنضالهم ، ولم يطلبوا من الدولة ثمناً لوطنيتهم بمنحهم ألقاباً أو سلطة ، وإنما رجعوا فى تواضع إلى أعمالهم الحرة فى الميادين الحرة دون ضجيج ولا صخب .

وهؤلاء جميعاً يعرفهم زملاؤهم من رفقة السلاح ، أو من قادة النضال ومن مسيرى العمليات الفـــدائية والعمليات الحربية . وربما تولت ذكرهم سجلات الإحصاءات الرسمية ـ التى ثبتت للتاريخ وللأجيال القادمة ـ ذلك الرصيد الغالى الذى دفعته الجزائر ثمناً للحرية إذا تولته أقلام صادقة ومخلصة.

أما الدور الذى قام به الإباضية فى هذا النضال ـ وأغلبهم تجار موزعون على جميع أنحاء القطر الجزائرى ـ فلعله يتلخص فى الخطوات الهامة الآتية :

١ ـ فى جبهات القتال :

لاشك أن الوجه الواضح لثورة التحرير الجزائرية إنما يظهر فى العمل البطولى الرائع الذى قام به المناضلون والفدائيون لمجابهة القوات الاستعمارية بمختلف تشكيلاتها فى ساحات القتال وفى الأودية ورؤوس الجبال ، وبين الغابات والأدغال .

وقد أخذ الإباضية فى هذا المجال قسطهم الذى يتناسب مع حجمهم وربما كان أكبر قليلا من الحجم الذى يقدر لهم ، ومن الأمثلة على ذلك أن الإباضية فى الجزائر عند اندلاع الثورة كان عددهم يتراوح بين الستين والسبعين ألفاً .

وقد التحقت أعداد من شبابهم بمعاقل الثوار على كل المستويات بل أن الشباب الإباضى على أرفع المستويات كان فى مقدمة من التحق بالثورة

فى الجبال ، ومن ذلك أنه لم يكن للإباضية فى ذلك الحين إلا ثلاثة من أطباء وقد التحقوا جميعاً بمعاقل الثورة فاستشهد منهم اثنان ، وتستطيع أن تقيس بقية الجوانب على هذا النمط وتحسب النسب .

٢ ـ التمويل :

لا شك أن تمويل الثورة لا يقل أهمية عن حمل السلاح فيها، وقد اعتمدت الثورة الجزائرية ضد الاستعمار اعتماداً كاملا على المتاجر الإباضية . فقد كانت جميع الطلبات التى تقدمها العناصر المسئولة فى الثورة إلى أى متجر من متاجر الإباضية تحقق فى الحال وفى صمت وفى هدوء كأنها عملية من عمليات البيع والشراء ولكنها دون مساومة .

ثم إن القيادة قد اتفقت مع شخصيات معينة منهم على أن تكون بعض متاجرهم فى كل مكان مصدراً للتمويل ومركزاً لتزويد جبهات القتال بما تحتاج إليه .

وقد كان تجار الإباضية فى مختلف المدن الجزائرية يعدون كل ما تحتاج إليه الثورة الجزائرية تحت أيد أمينة لتصل إلى أماكنها عند الحاجة . وإلا بقيت محفوظة أو مخزونة حتى يأتيها الطلب . ولعل ما دفعه إباضية الجزائر لتمويل الثورة فى مرحلتها الطويلة يفوق كل ما دفعه غيرهم .

وهكذا قام الإباضية بجانب ثان هام من جوانب جهاد العدو . ولو لم يقوموا هم به على هذه الجدارة وبهذا الاستحقاق لما استطاعت الثورة أن تصمد أمام التحدى الاستعمارى العنيف .

وقيادة الثورة الجزائرية تعرف هذا حق المعرفة وتقدره حق التقدير ، ولا يقال من أهمية النضال أن بعض المناضلين، لا يعرفون هذا ـ ولا يعرفون

الأسس السرية التى انبنى عليها النضال ـ لأنهم يمرون وسط شوارع المدن فيرون المتاجر مفتوحة ، والأعمال جارية فى روتينية واضحة ، وأصحاب المتاجر يواصلون أعمالهم فيها فى هدوء ونشاط ، فيعتقدون أن أولئك التجار غير مهتمين بالثورة ، فهم إما سلبيون وإما خونة ، وإما حلفاء للاستعمار فيشيعون عنهم الأراجيف التى ليس من الحق فى شىء والتى ربما سببت فى إيذاء ناس كان إخلاصهم للثورة يحبذلهم فى الجهاد ، وعملهم فى سبيل الله لا يقل عن أولئك الذين عرّضوا أنفسهم للموت فى ميادين القتال .

والجهاد بالمال فى سبيل الله قرين الجهاد بالنفس فى جميع مراحل الجهاد . وكثيراً ما قدم القرآن الكريم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس . ليشعر المؤمنين بأهمية البذل فى سبيل الله .

٣ ـ تأمين الأشخاص :

لا تخلو مدينة من مدن الجزائر من عدد من المتاجر صحابها من الإباضيين ، ولعل تسخير الإباضية لأعمال التجارة فى جميع أنحاء الجزائر كان وفق مشيئة الله تعالى لحكم يعلمها وعرف الناس بعضها فى هذه الظروف وهو تأمين المجاهدين فى سبيل الله لإخراج المستعمرين من بلاد الإسلام .

بمجرد ما يحس أحد رجال الثورة ـ عند دخوله للمدن أو القرى للقيام بأعمال تقتضيها مصلحة الثورة ـ برقابة السلطة الاستعمارية أو بتعقبها له فإن أول متجر للإباضية يقع فى طريقه يكون صالحاً لأن يكون ملجأ أميناً له ، فيلجأ إليه فى الحال لأنه يعرف أن لهم وسائل فى إخفاء من يلجأ إليهم لا يمكن لشيطان الاستعمار أن يكشفها وهو أيضاً على يقين أن هؤلاء أولئك الناس لا تخفر مهما كانت النتائج ، وهو يعرف أيضاً أن مجرد التجائه إليهم

يجعلهم يحسون بمقدار الخطر الذى يتهدده ولذلك فهم حريون أن يبتغوا له الحماية والأمن حتى ينجز المهمات التى جاء من أجلها .

وهم يعرفون فوق ذلك أن انكشافه عندهم يعرضهم ويعرضه لكثير من الأذى ويضعهم تحت الرقابة المستمرة .

وتُروى فى هذا الباب قصص ونوادر[1] وبطولات تعتمد أو على صدق النية فى الجهاد بكل الوسائل ، ثم على الذكاء واللباقة وحضور البديهة واتساع الحيلة وحسن التصرف، وهى فى مجموعها تكشف عن المعاناة الحقيقية لركائز الجهاد المجهولة التى كانت تعمل وهى لا تحتسب من أحد من الناس شكراً أو أجراً أو فخراً .

٤ ـ تأمين المواصلات :

بحكم اشتغال الإباضية بالتجارة فى جميع أنحاء الجزائر فإن الحركة و التنقل من مكان إلى مكان وشحن السيارات بالبضائع من بلد إلى بلد مظهر جميعى من مظاهر نشاطهم لا يثير ـ فى عمومه ـ شكوك الاستعمار ، ولا يستدعى المراقبة والتقبع والتحقيق . ولذلك فقد كانت مطالب الثورة تنتقل على أيديهم من بلد إلى بلد فى صورة بضائع تجارية مطلوبة ، وتستقر تلك المطالب

---

(١) ذكر لى أحد أولئك التجار أنه أعد فى متجره أنواعاً من الألبسة التنكرية كاللحى والشعور المستعارة والعمائم الجاهزة وألبسة كالتى يلبسها عمال الإباضية فى متجرهم . وعندما يدخل إليهم ملتجىء من منظمة العدو مسرعان ما توضع على وجهه لحية وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره ثوب من ثياب العمل ثم يبدأ فى العمل من الجوانب الواضحة من المحل فإذا جاء المترددون لم يخطر لهم أن طريدهم هو أحد العاملين فى واجهة المحل واندفعوا ـ بفطرستهم ـ إلى الداخل يبحثون ويقلبون المحل تفتيشاً ولكنهم لا يعثرون على من يطلبون وهو قد يكون فى ذلك الحين بين أيديهم وأعينهم يمد قطعة قماش إلى زبون أو يقشر البصل فى المطبخ .

(فى صورة بضائع) فى متجر من متاجرهم لتصل بالتدريج حسب الخطط التى تضعها قيادة الثورة إلى أماكنها من جبهات القتال، فى بطون الأودية ورؤوس الجبال ولربما كان أشد الطرق أمناً وأكثرها نشاطاً وحركة لإمداد الثورة بما تحتاجه من مؤن إلى أقصى مواقع الثورة إنما هى التى كانت تمر على متاجر الإباضية، ويتولون هم أنفسهم ترحيلها واستقبالها ثم إيصالها إلى أماكنها التى ينبغى أن تكون فيها فى مواعيدها المحددة حيث تكون تحت تصرف المناضلين.

• ـ تأمين المخابرات :

إن الإباضية فى الجزائر بطبيعة أعمالهم التجارية وتنقلهم بسببها بين جميع أطراف البلاد وخارج أطراف البلاد قاموا بأروع الأعمال فى تأمين مخابرات الثورة سواء كان ذلك فى إيصال المخابرات بين أجهزة الثورة نفسها أو فى إبلاغ مخابرات الثورة إلى الشعب أو فى إبلاغ مخابرات الشعب إلى الثورة. فقد ربطوا بين عناصر الثورة فى كل مكان، وأمّنوا مخابراتها بحيث أصبحت الاتصالات بين أعضاء الثورة تتم فى سرعة وسرية ودقة تستدعى الإعجاب والتقدير. فما تريد جهة من جهات الثورة تبليغ أمر أو خبر إلى جهة أخرى بعيدة حتى ينطلق تاجر إباضى إلى تلك الجهة البعيدة ليعقد صفقة تجارية فى الظاهر قد تتم أولا تتم ولكن المهم من تلك الرحلة التجارية أن يتم فيها للثورة ما شاءت من مخابرات تصل فى حينها، وقد قام التجار الإباضية فى تونس وأفراد البعثة العلمية هناك بربط جميع الحلقات بين الحكومة الجزائرية المؤقتة فى تونس وقيادة النضال فى داخل الجزائر بل إلى أى فرع من فروع القيادة فى الأطراف. فعندما تفكر الحكومة

الجزائرية فى تونس فى إبلاغ شىء إلى الثوار أو الحصول على شىء منهم ينطلق فرد أو أفراد من الإباضية ـ تجار أو طلبة ـ لزيارة وطنهم إما لعمل تجارى أو لإطفاء لواعج الشوق . وفى حركتهم تلك يتم المقصود من الإبلاغ أو الحصول ، وهكذا تتم المخابرات بين أعين وآناف الاستعمار وأجهزته المتجسسة ولكنه لا يسمع ولا يرى ولا يشم .

وقد كانت بعض متاجر الإباضية فى أغلب المدن الجزائر بمثابة دور البريد أو مراكز المخابرات للثورة فهى مستودعات للرسائل والنشرات والبلاغات وكانت تلك المراكز معروفة عند عناصر القيادة . فيتردد عليها حملة البريد السرى للثورة أو توصل إليهم إذا خيف من التتبع والمطاردة . وفى أكثر الأحيان يودع هناك ما يراد نقله أو توزيعه إلى جهات فيصلها فى أمان ودقة . وكانت تلك المتاجر تسلم وتستلم ما يمر بها إما لشخص معروف لديها وإما بكلمة سر هى مفتاح التعامل .

ولقد نال تجار الإباضية بسبب هذه الأعمال كلها كثير من الشر والأذى كالسجن والضرب والتعذيب بأنواعه المختلفة ومصادرة الأموال.

ولكن الاستعمار ـ فى جميع حالاته تلك ـ لم يستطع بجهازه التعذيبى الجهنمى وبطائفه الوحشى أن ينتزع سراً واحداً من إباضى واحد ممن أوقعهم سوء حظهم تحت براثنه ، وإنما كان الواحد منهم يتلقى ما ينزل عليه فى ألم وصبر محتسباً ذلك فى الله . ولم يذكر عن واحد منهم أنه أشار لا من قريب أو بعيد إلى ما يضر بالثورة أو برجال الثورة ، ولقد لقى بعضهم حتفه تحت التعذيب دون أن تنفرج شفتاه عن أى سر من أسرار الثورة وعنده منها مخبئات سلمها خلفاؤه إلى رجال الثورة كاملة سليمة .

هذا الموقف البطولى نفسه كان مدعاة للحيرة والاندهاش بالنسبة إلى الجانبين . فهو من جانب تكذيب لتحريات رجال المباحث الاستعمارية فيما يعتقدون أنهم وضعوا عليه اليد وأمسكوه من كل أطرافه . وهو من جهة أخرى قلل من الشائعات والأخبار عما يقومون به من أعمال فى صمت وإتقان حتى ظن السطحيون أن جهودهم فى مكافحة الاستعمار ضئيلة . وكانت نتيجة هذا الموقف البطولى من تحمل العذاب وكتمان السر أنه لن يستطيع أحد أن يقف يوماً فيزعم ـ أن ضرراً ما لحق به أو بشخص ما أو بمرفق من مرافق الثورة بسبب اعتراف إباضى عليه بعملية الترغيب أوالترهيب أو التعذيب . والسبب فى هذا الموقف أن الإباضية لا يجيزون ـ شرعاً ـ لأى شخص أن يخفف عن نفسه العذاب بتوريط غيره . ولعل مما يوضح هذه الصورة أن أنقل فقرات من رسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى ، قال :

« ولا يفوتنا أن نشير فى ختام هذه الرسالة[1] إلى الدور الفعال الذى أسهم به الميزابيون فى الثورة التحريرية ما بين سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٦٢ ولا يسعنا فى هذا المقام أن نطيل بذكر كل التفاصيل ولكننا سنشير إلى بعض النقاط :

١ ـ اندلعت الثورة فى فاتح نوفمبر ١٩٥٤ وكان نشيد الثورة الرسمى هو النشيد الرسمى للدولة الجزائرية حتى اليوم وهو من إنشاء شاعر الثورة الجزائرية مفدى زكرياء ، مثل نشيد فداء الجزائر الذى كان النشيد الرسمى

---

(١) كتب الأستاذ إبراهيم قرادى تلك الرسالة بما تضمنتها من معلومات بموافقة المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود . وقد أكد لى الشيخ سليمان بأنه يملك مصادر موثوق بها ووثائق رسمية فى جميع ما جاء برسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى .

لحزب الشعب الجزائرى ـ ومعنى هذا أن الشعراء الإباضية استطاعوا أن يعبروا عن المشاعر الوطنية للشعب الجزائرى بأحر وأصدق مما يعبر غيرهم ، وأنهم يحسون بالقضية الوطنية فى كل أدوارها ومراحلها بأعمق مما يحسه غيرهم من الشعراء » .

ولعله لم يرتفع فى إذاعة صوت العرب بالقاهرة ـ طيلة سنى النضال المسلح للثورة الجزائرية ـ صوت شاعر جزائرى كما ارتفع صوت صالح الخرفى (وهو ميزابى إباضى) معبراً عن وجدان الثورة الجزائرية وأحاسيسها ، وصار وخاً بصوتها القوى يهز مشاعر الأفراد والجماهير ، حتى خيل لكثير من من يعى صوت العرب أن صالحاً الخرفى كان هو الصوت الرسمى للثورة الجزائرية فى القاهرة . وقد استطاع صالح أن يدخل بصوت الثورة إلى أبراج الأدباء والشعراء فى العالم العربى . وقد استطاع هو أيضاً أن يعبر على الشعر الثورى العاطفى إلى مكانة فى الأدب العربى ما كان ليبلغها بالمقاييس الأدبية المجردة .

ولو جاز لمسلم أن يستشهد لقضية الجهاد حتى بالأعمال التى تخالف شريعة الله لقلت ـ حسب روايات أحد الأصدقاء ـ إن شياطين الإباضية أيضاً قد اشتركوا فى قضية تحرير الجزائر بمجهود واضح لدى الجماهير فقد تعاون شيطان الشعر عند الخرفى مع شيطان الغناء عند وردة الجزائرية وجوقتها وقدموا عدداً من الأناشيد والأغانى الوطنية ، فكان أولئك الشياطين يحركون عواطف الناس بكلمات صالح وصوت وردة . ولكنى لا أعلم فى الحقيقة إلى أى اتجاه كانت تتحرك تلك العواطف[1] .

---

(١) الفقرة السابقة التى تحدثت عن شعر صالح الخرفى لم يكن مصدرها رسالة قرادى .

٢ ـ كان أول ثلاثة أطباء انضموا إلى صفوف الجيش فى أول يوم من الميزابيين . استشهد منهم اثنان وهما : تيرشين إبراهيم فى نواحى الونشريش قرب الأصنام . وقضّى بكير فى جبال سوق اهراس ، وقد سمى باسمه مستشفى غارداية . أما الدكتور الثالث فهو لا يزال حياً ، وهو الدكتور بابا عمر عبد الرحمن ولم يكن من أبناء الميزابيين طبيب غيرهم ، ومعنى هذا أنهم بعثوا بكل أطبائهم إلى صفوف الجيش الذى حرر الجزائر فاستشهد الثلثان فى جبهة القتال .

٣ ـ أدار السيد الرئيس بن خدة والعربى بن المهيدى معركة الجزائر العاصمة من ثمانية عشر مركزاً كانت كلها للميزابيين ، قام فيها رجال الثورة بأدوار بطولية نادرة لم تكتشف إلا بعد إضراب الثمانية أيام ، وكل هذه المراكز كانت للميزابيين فى الأحياء الأوروبية من عاصمة الجزائر .

٤ ـ تكونت الولاية السادسة تحت قيادة سى حواس العقيد أحمد ابن عبد الرازق فى مركزها الأول وهو غابة الحاجب التى هى ملك لآل الخبزى وانضم كل أبنائه إلى صفوف الثورة فكان منهم من صعد إلى الجبال ومنهم من قام بالعمل السياسى وتركيزه فى منطقة الصحراء » .

وقال :

« وقد توقف إطلاق النار فى سنة ١٩٦٢م ومركز قيادة المنطقة الخامسة من الولاية السادسة فى العطف بوادى ميزاب ، وكانت مساحة هذه المنطقة تمتد ما بين الحدود التونسية بوادى سوف شرقاً إلى الأغواط غرباً ، إلى تيمنراست جنوباً ، وغنى عن الذكر أن اختيار القيادة الرشيدة لمركز هذه المنطقة لم يكن عبثاً ولا مصادفة » .

أحسب أن هذه المقتطفات كافية لإيضاح الصورة التى أردنا عرضها

على القارىء الكريم بإيجاز شديد ، أما الصورة الكاملة فهى لا تزال مستترة حتى ينتدب لها أحد الشباب المثقف من أبنائهم فيتولى عرضها بأسلوب علمى يضع كل حقيقة فى مكانها ويبنى كل لبنة فيها على أساس متين .

وبعد كل هذا .. فإن الإباضية جزء من الأمة الجزائرية قاموا بواجبهم فى جهاد العدو استجابة لأمر الله تعالى لا منة لهم على أحد ، وليس لأحد عليهم منة . فإن شذ فيهم أفراد — كما يشذ من كل قوم — فلم يصدقوا فى الجهاد فى سبيل الله ، أو قصروا فى جنب الله ، فإن ذلك ليس بدعاً فى الأمم والشعوب ، وفى كل بلد مجموعة بشرية من أمثال أولئك الأفراد ولا عبرة بالشواذ . وإن كنا لم تبلغنا أية حالة من هذا النوع فى هذا الشعب الكريم ، ولم أسمع من أحد أن أحداً منهم (أىّ أحد) انهم بخيانة أو عمالة أو جوسسة أو تواطؤ مع العدو .

هذه صورة مختصرة جداً عن جهاد إباضية الجزائر فى سبيل الله — وهم يحرصون شديد الحرص على عدم التحدث عما قاموا به لأنهم قاموا به لله ومنه وحده ينتظرون الجزاء .

عسى الله تبارك وتعالى أن يوحد بين جميع المسلمين فى نظام حكم واحد عامل بدين الله متجه إلى محاربة أعداء الله . مجاهد فى سبيل الله — حسب أمره تعالى — بالمال والنفس حتى يتم تبليغ رسالة الإسلام التى أوقف تقدمها اشتغال ساسة المسلمين بالنزاع على ما فى أيديهم وإعراضهم عن السير قدماً فى الطريق الذى سار فيه أبو عبيدة وسعد وخالد وعمرو وعقبة وموسى وطارق .